رواية

الغداء الأخير

نجلاء محمد عفيفي

إهداء

إلى كل صاحب رسالة.. فقط امضِ في طريقك

١

لم تستطع النوم في هذه الليلة، كانت تأتيها غفوات النوم كأنه زائر خفيف، يداعب أجفانها التي لم تستجب لمحاولة الإغماض القهري، والتي حاولت أن تكرهها عليه.

كان القلق هو المسيطر عليها، نعم كانت قلقلةً قبل ذلك، منذ أن اتخذت قرارًا بالرحيل عن هذا البيت الذي عاشت فيه أجمل الذكريات، كانت هذه الذكريات تتناوب زيارتها مع غفوات النوم القليلة.

صدح المؤذن بصوته العذب الذي طالما اقشعرَّت بسماعه جوارحُها، **"الصلاة خير من النوم"**، راحت تردد ما تبقىٰ من الأذان، تسللت الذكريات مرةً أخرىٰ وقفزت إلىٰ تفكيرها، وولجت أبواب التذكر الذي طالما هبط دون إنذار علىٰ قلبها.

أخذت نفسًا عميقًا، حاولت أن تُخرج عبر زفيره ما تبقىٰ من حالات التردد التي تزورها كنوبات الأرق والصداع، والتي جثمت علىٰ صدرها محفزةً إياها أن تتراجع عن قرارها.

أخذت تستغفر وتحوقل بعد الصلاة، لكنَّ هاجسًا مؤلِمًا

راح يجلدها بسياط الأوجاع المريرة التي كم عانت منها في وحدتها، والتي شكلت لها كل عناصر الغربة والشجن.

ثمة أسئلة قفزت إلىٰ واجهة اللحظة.

تُرىٰ!! هل ستكون هذه هي آخر صلاة لها في هذا البيت؟!

هل كان بوسعها أن تؤجل قرار الرحيل؟!

وماذا بعد؟!

تُرىٰ هل ستسمع صوت ذلك الرجل الذي يقرأ القرآن، وكأنَّما أُوتيَ مزمارًا من مزامير آلِ داوود، والتي كانت دائمًا تؤخر الصلاة حتىٰ يفرغ من القراءة في صلاة الفجر، وحتىٰ يستقبل قلبُها كلماتِ القرآن وهو يخرج بذلك الصوت العذب، فيخفق قلبُها وتنهمر دموعُها، كانت الليلةُ مختلفةً عن سابقتها.

راحت تودع كلَّ شيءٍ سمعيًا وبصريًا، راحت تدقق في تلك الوجوه المُعلَّقةِ علىٰ جدران الحوائط في براويز صمَّاء، إلا من نظرات ساكنيها وبسماتهم التي سارت تلاحقها أينما توجهت.

قال زوجها: هل هانت عليك جلساتُنا علىٰ هذا المقعد؟ هل نسيتِ وأنتِ تقدمين لي فنجان القهوة، وأنا أقبل يدك قائلًا: لا حرمني الله من تلك اليدين التي توضأت فصنعت لي تلك القهوة ذات المذاق الأثير؟!

تراك هل تذكرين يوم تقدمتُ لخطبتِك، بعد أن قضينا معًا قصةَ حبٍ كانت الشفافيةُ والطهارةُ هما العنوان لها؟ يوم أن وشىٰ بي قريبُك الذي كان يسابق الزمن في جمع الأموال حتىٰ يحظىٰ بالقرب منك ولو بنظرةٍ عابرة، لكنك رغم الوشاية التي ذكرها لأهلك من أنني هارب من الثأر في الصعيد، فارتجـَّت جوانب الأسرة رافضين لتعدلي عن القرار الذي أيدك فيه والدك!!

وقد ألقيت بهذه المخاوف بعيدًا، فأبدلك الله بها أمنًا وأمانًا.

لماذا يا خديجة تتركي عشنا؟

"ماما هل هان عليك أن تمر الليالي دون أن تُقبِّلي صورتي؟"

وتحدثها الثانية: "أراك عاتبةً، ولكنها سنة الحياة التي

أخرجتك من بيت والدك لتتزوجي، وقد انفطر قلبك من الفراق، وها هو ينفطر للمرة الثانية. لله درك يا أماه إنني أشعر بك".

دوارٌ في الرأس، وحيرةٌ أطلت عليها من جديد، وخوفٌ من مستقبل لا تدري إلىٰ أي مدًىٰ ستصل إليه، وبأي كيفية يكون، جلست مُطرقةَ الرأس علىٰ المقعد الذي كان قد اعتاد أن يجلس عليه زوجُها وقت احتساء القهوة.

آه!! يا لها من ذكرياتٍ لو تُرك لها المجالُ لأصبحت شلالاتٍ تُغرق صاحبها في شجون وأحزان، استطاعت أن تتعايش معها بعد رحيل زوجها المفاجئ والمرير.

نظرت إلىٰ سقف الحجرة، ثم قلَّبت نظرها حائرةً، هي تشعر أن الجمادات التي حولها ترجوها عدم الرحيل.

ترىٰ أيكون لهذه الجمادات نبضٌ يمنحها القدرة علىٰ البكاء والشجن؟

هل يمكن أن تكون لديها جيناتٌ حيَّة تشعر بلمسة أهل الدار، وسماعهم للحكايات القديمة؟! ثمة أسئلة كثيرة تناوشتها، ولكن كان عليها أن تخرج من هذا الجو الخانق.

أفاقت وهي تردد قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

جو مكتظ بالتناقضات، آمال، خوف وترقب، قلق ينخر في صدرها.

فكرت قليلًا؛ وفجأةً عزمت علىٰ اتخاذ القرار، فذهبت باتجاه حجرة نومها، وحزمت أمتعتها الشخصية، لا تعرف كم مر من الوقت وهي تلملم أشياءها، ولكن الذي تعرفه أنَّ شروق الشمس قد أطلَّ عليها من خلال زقزقة العصافير، وصوت الشيخ محمد رفعت بإذاعة القرآن الكريم فانتبهت هنا للوقت، وأنَّ عليها أن تُسرع قبل زحام الشوارع الخانق، خرجت من حجرتها قاصدةً المطبخ، تفرغ محتويات الثلاجة في أكياسٍ بلاستيكية، غطَّت جميع الأجهزة الكهربائية والأثاث بعناية، معلنةً عزمها عدم استخدامهم مرةً أخرىٰ، إلا إذا اضطُرَّت لذلك، أحكمت إغلاق النوافذ وأبواب الحجرات جيدًا، أغلقت محابس الغاز والمياه، واتجهت لحجرتها مرةً أخرىٰ، لتستكمل ملابسها عازمةً علىٰ الخروج، علَّقت حقيبةً متوسطة الحجم علىٰ كتفيها، بها بعض ملابسها

وأمتعتها الشخصية، راحت تطفئ أنوار حجرتها، وتنظر فيها يمينًا ويسارًا حتىٰ لا تنسىٰ شيئًا، ثم تمسك بمقبض الحجرة وتخرج منها، وتدير وجهها إلىٰ الحجرة مرةً أخرىٰ، وتأخذ نفسًا عميقًا معلنةً توديع كل شيءٍ إلا من ذكريات لا تزال وستظل ساكنةً بقلبها، تتجه الي المطبخ، وتمسك بحقيبة صغيرة بها بعض المشروبات الضرورية لها، والتي تحسن من مزاجها العام كلما احتاج الأمر لذلك من شايٍ وبُنٍ وأعشابٍ طبيعية، وكذلك بعض الأدوات من "غلاية كهربائية، وسبرتاية، وكنكة نحاس، وغير ذلك من أدوات"، أمسكت بيدها الأخرىٰ الأكياس البلاستيكية التي قامت بإعدادها من قبل، اتجهت إلىٰ باب الشقة، وخرجت منه متجهةً إلىٰ المصعد، وضعت الأكياس بجواره، وعادت مرةً أخرىٰ لشقتها، أمسكت بحقيبة يدها التي وضعتها علىٰ المنضدة التي أمام باب الشقة، والتي كان معلقًا فوقها مرآة، وقد نظرت إليها خديجة لتصلح ملابسها، وبعد أن أخذت شهيقًا عميقًا حدثت نفسها قائلةً:

"هيا يا خديجة بسم الله توكلت علىٰ الله" ومدت يدها إلىٰ لوحة المفاتيح الكهربائية وأغلقت خطوطها، خرجت من

باب شقتها، أدارت وجهها مرةً أخرىٰ إلىٰ الشقة، تدير رأسها وتحملق بمقلتيها في الشقة، أمسكت بمقبض الباب، وما أن همَّت بإغلاقه إلا وتذكرت أنها نسيت شيئًا مهمًا، نظرت إلىٰ الأرض بجوار الباب حيث وجدته، إنه اللاب توب، أمسكته بفرحة وحمدت ربها أنها تذكرته قبل الرحيل، علقته علىٰ الكتف الأخرىٰ وأحكمت إغلاق الباب واتجهت إلىٰ المصعد.

وقبل الخروج من البناية نادت علىٰ الحارس بصوت مرتفع: مجاهد.. مجاهد.. يا مجاهد.

جاء الحارس مهرولًا من الخارج يمسك بتلابيب جلبابه بين ثنايا أسنانه قائلًا: أفندم أفندم يا مدام صباح الخير.

ابتسمت وردت عليه التحية، وما أن وقعت عيناه علىٰ الحقائب الكثيرة التي بجوارها حتىٰ بادرها قائلًا: ما هذا؟ أنويت السفر؟

قالت خديجة وهي تتجه إلىٰ باب البناية:

لا؛ فقط سأغيب عدة أيام لأمرٍ هام، اعتني جيدًا بالسيارة والشقة أثناء غيابي.

قاطعها قائلًا وعلامات الاستغراب تبدو علىٰ وجهه: ألن تستقلي سيارتك؟!

قالت وهي تدس يدها في حقيبتها:

لا؛ سأستأجر سيارة، ثم أعطته مبلغًا من المال وقالت:

اشتر حلويات لأبنائك، وعندما تأتي أم سعاد أعطها الخمسين جنيها هذه، وأبلغها أنني هاتفتها كثيرًا، ولكن كان هاتفها مغلقًا، وأعلمها بألَّا تأتي إلا عندما أهاتفها.

دهش الحارس ممسكًا بالنقود محملقًا فيها: هذا كثيرٌ جدًا يا سيدتي، فأنت تغدقين علينا بالخير الوفير. (قالها وهو يدسُّهم في جيبه معلنًا شكره وامتنانه لها).

أمسكت خديجه أحد الأكياس البلاستيك وأعطتها لمجاهد قائلةً:

خذ هذه الشنطة، والآن هيا أخبر أم عبير، وأم حسين أني أريدهما (حيث كانت تساعدهم بإعانات شهرية) وبعدها اذهب واستأجر لي سيارة.

خرج مجاهد من البناية، وبعد برهه من الوقت جاءت

أم عبير وأعطتها خديجة مبلغًا من المال وكيسًا من الأكياس البلاستيكية، ثم لحقتها أم حسين وفعلت معها نفس الفعل، ثم انصرفتا بعد أن شكرتا خديجة.

جاء مجاهد بالسيارة، وقام بحمل الحقائب ووضعها في السيارة وركبت خديجة بعد ما أوصته أن يفعل كل ما طلبته منه.

٢

تمتمت بأدعية الركوب، وبعض الآيات من القرآن الكريم التي اعتادت أن تقولها منذ صغرها، ولم يقطع تمتمتها سوىٰ صوتِ سائق السيارة وهو يسالها عن وجهتها: أين ستذهبين؟

قالت: الفجَّالة.

أطلقت العنان لطائر ذكريات ماضيها الجميل، وهي تتابع الشوارع القريبة من منزل والدها، والذي كان يمتلك مطبعةً ورثها عن والده، ومكتبةً لبيع الكتب العلمية والأدبية ملحقةً بالمنزل، ولكن بعد وفاة والدها بعامٍ أُغلقت المطبعة والمكتبة لعدم وجود من يباشرهما، واكتفت أمُّها بالمعاش الخاص بوالدها.

تنظر خديجة هنا وهناك من زجاج السيارة، وتبتسم حينما تذكرت أيام مدرستها وطفولتها وصباها وشبابها، وصديقاتها اللاتي كن معها بالجامعة، وقد انقطعت أخبارهن الواحدة تلو الأخرىٰ من بعد زواجهن، إلا اثنتين لم تتأثر صداقتهما بالزواج أو السفر.

لم يقطع شريط ذكرياتها إلا صوتُ السائق معلنًا إياها بالوصول.

تملكها شعور بالرهبة، والخوف، والفرحة، والمحبة، والحنين، وهي تنزل من السيارة وتقف أمام بيت أبيها، كانت الساعة حوالي التاسعة صباحًا، والحي يكاد يخلو من المارة، بعد أن ذهب الطلبة إلىٰ مدارسهم، والعمال إلىٰ أشغالهم، ولكنَّه الهدوء الذي يسبق الضجيج المقبل، بعد أن تفتح المحلات أبوابها، خاصةً المكتبات لاستقبال العملاء بعد عدة ساعات، حيث أنَّ هذا الحي معروفٌ بالزحام الشديد، نظرًا لما يوجد به من محلات تجارية، يقصدها من يريد شراء أدوات صحية، أو أدوات مكتبية، أو كتب، أو طباعة أية مطبوعات بالمطابع القابعة بهذا الحي، حيث إنه يتفرع منه أكثر من شارع يؤدي إلىٰ تلك الخدمات.

لم تر خديجة سوىٰ بعض المارة من طلاب الجامعة، وبعض بائعي الخضر والفاكهة، وقليل من ربات البيوت، وبعض قاصدي السوق القريبة من الحي، أما ما داعب أنفها فتلك رائحة الفول والطعمية، التي فاحت وملأت الحي، والتي ذكرتها بأيام المدرسة في صباها.

أمسكت بحقائبها وهي تتجه إلىٰ باب الحديقة الخاصة المؤدي إلىٰ باب البناية، حيث جعل والدها للبناية بابًا خاصًا غير مخصص لباقي سكان العقار، فقد كان والدها يفضل الخصوصية، فصمم مدخلًا خاصًا لشقتهم الكائنة بالدور الأرضي المرتفع، وتطل جميع شرفاتها علىٰ حديقتهم الخاصة بهم، والتي كانت بها بعض أشجار الياسمين والتوت، وفي ركن بعيد يوجد تكعيبة عنب، وتقبع تحتها طاولة وعدة كراسي من الخيزران، وبجوارها أرجوحة تتسع لفردين في الركن الذي كان بعيدًا عن أعين الجيران، حيث صمم والدها باقي البناية بحيث تطل نوافذ شقته علىٰ الحديقة ولا تطل عليها نوافذ الجيران، فقد كان ظهر البناية والذي به شبابيك المطابخ فقط تجاههم، فلا يرون إلا باب الحديقة فقط، أما باقي حجرات البيت فتطل علىٰ الشارع الآخر.

فتحت خديجة الباب، تجولت بعينيها في المكان، تستجمع ذكريات أفراحها وأشجانها، تتذكر الجيران وحكاياتهم، تتجول ببصرها يمينًا وشمالًا، وقد أخذها شعور بالحنين والشوق والأسف علىٰ ما آلت اليه الحديقة من تدهور أصاب الأشجار والحشائش، وآثار الزمن التي مرت

علىٰ أرجوحتها، من أتربة وتمزيق لفرشها، وصدأٍ عالق بها. تحركت قليلًا باتجاه الدَّرَج المؤدي إلىٰ الشقة، وهي تنظر إلىٰ تكعيبة العنب، تلك التي كانت تحلو للأسرة أن تجلس تحتها بعد صلاة العصر، حيث يتناولون الشاي والشطائر الحلوة التي تصنعها الأم، وكان يحلو للأبناء اللعب بدراجاتهم حول والديهم، وممارسة هواياتهم، فمنهم من يقرأ مثل أبيهم، ومنهم من يرسم مثل أمهم، وقد كانت هذه الحديقة متنفسًا لأولاد الجيران من أصدقائهم.

صعدت الدرج محاولةً فتح باب الشقة، ولكن تعسَّر فتحُه، حاولت مرارًا وتكرارًا، ولكنَّ محاولاتها باءت بالفشل، فما كان منها إلا أن وضعت ما تحمله من حقائب علىٰ الأرض التي اكتست بأوراق الشجر والتراب.

نزلت مسرعةً متجهةً إلىٰ الخارج، تنظر هنا وهناك، تحاول الاستعانة بأحد الرجال الأشداء لفتح الباب، فخطرت ببالها فكرة عندما شاهدت بائع الفول والطعمية القريب من بيتهم، ذهبت إليه وهي تتلفت وراءها خوفًا علىٰ أمتعتها من السرقة، طلبت منه أن يعطيها بعض الزيت لوضعه علىٰ المفتاح، ربما يكون قد أصاب القفل بعض الصدأ.

وبعد أن أخرجت النقود، لتشتري منه بعض شطائر الفول والطعمية، لتنفرجَ أساريره بعد أن كان ممتعضًا من أجل نقاط الزيت، وقال لها: تحت أمرك يا مدام.

عادت إلىٰ البيت بعد أن وضعت بعض نقاط الزيت علىٰ المفتاح، حاولت فتح الباب بعد أن وضعت المفتاح، وقد رجَّت الباب الذي أصبح عصيًا علىٰ الفتح، وفي النهاية وبعد عدة محاولات، وقد أصيبت بشيء من الأرق النفسي، بدا الاضطراب عليها، حاولت أن تتماسك، ولكن دون جدوىٰ، فكانت دموعها الأسبق إلىٰ رثاء حالتها، ومما زاد من توترها سقوط المحمول من يدها، وهي تحاول الردَّ علىٰ إحدىٰ صديقاتها، جلست علىٰ دَرَج السُلَّم ودموعها تنهمر لا تدري ماذا تفعل!!

نفضت غبار السُلَّم الذي علق بثيابها، ونزلت مسرعةً إلىٰ الشارع، تتفقد من يُصلح لها الباب، حتىٰ أعياها التجول ببصرها، فعادت وهي تدعو الله أن ييسر أمرها، ووضعت المفتاح مرة ثانية بالباب، وقالت: بسم الله، وبدأ المفتاح يأخذ حركة ناحية الفتح، وبعد أن دفعت الباب بشدة انفتح معها بعد أن أذابت نقاط الزيت ما علق بالقفل من صدأ، قالت في

نفسها: الحمد لله كان عليَّ أن أنتظر حتىٰ يتأثر القفلُ بالزيت الذي وُضع بالمفتاح (تنهدت) هيييه، كثير من القلوب قد غشَّاها الصدأ، ولا تحتاج منا إلا بعض الوقت حتىٰ تلين بقليل من وسائط المحبة والوداد.

وما أن ولجت خديجة إلىٰ داخل الشقة، حتىٰ تملكتها رعدة شديدة، وكأنما تدخلها لأول مرة.

لماذا كل شيء يبدو مختلفًا هذه المرة؟

أخذت نفسًا عميقًا وكأنما تسترد روحها من جديد، والتي كانت قد أودعتها هنا مع ذكرياتها أمانة.

احتضنتها الجدران، لحفها السقف، طارت بها الأرض كبساط الريح، تدور وتدور في المكان، وتنجذب إلىٰ داخل البيت أكثر فأكثر، كالفراشة التي تنجذب للضوء، في كل ركن من أركان البيت، ثم استوقفتها فجأةً الصور الفتوغرافية المعلقة علىٰ الجدران، والتي طمس غبار الأتربة بعض معالمها.

ثم مدَّت يدها لتزيل آثار التراب من عليها، وأزاحت الستار المواجه للصور، حتىٰ ظهرت الصور بعد دخول أشعة

الشمس الذهبية، والتي ما لبثت أن ملأت المكان، وقفت مرةً أخرىٰ أمام الصور، محاولةً استرداد ذكريات عميقة، هذه صورة والدها، الذي كان يشغل منصبًا في وزارة التربية والتعليم، وهذه والدتها التي كانت تبذل كل ما في وسعها لإسعادها هي وأخيها المتوفىٰ في حادث سير، عندما كان في طريقة لمدرسته الابتدائية. أما هذه فصورة خالها إبراهيم الذي ربته أمُّها فقد تُوفيت والدته، وتعهدته أخته بالرعاية، حيث كان يكبر أخاها قليلًا، وهذه صورة خديجة، وبقية الصور كانت لأقارب، وكلها جسدت لها عبق الذكريات.

إلا أنَّ صورةً هناك وقفت أمامها خديجة، وقد تسمرت في مكانها، وهي صورة عرسها مع عبدالحميد، وكأنَّ الزمن قد توقف في هذه اللحظة، تذكرت خديجة تلك الأحداث المريرة التي وقعت، وقفز إلىٰ ذاكرتها كل ما حدث، وكأنما هو شريط سينمائي بمشاهده الحية المؤلمة.

٣

كانت في هذا اليوم كالفراشة المحلقة، غمرت السعادة قلبها، وراحت تجوب شقتها ذهابًا وايابًا، تدخل من هذه الحجرة لأخرىٰ، وهي تعد لتلك الحفلة التي ستبدأ بذلك الغداء الذي سيضمها وشروق وضحىٰ، علقت الزينة ورتبت كل شيء، فبدت شقتها كالعروس التي تُزف إلىٰ عش الزوجية.

شروق: ماما هو الباشمهندس عبد الحميد اتصل؟ ويا ترىٰ إيه هدية عيد زواجكم لما نشوف.

الأم -وقد بدت عليها علامات الخجل- وهي تسر في نفسها: ألهذا الحد لاحظت شروق سعادتي بقدوم أبيها من السفر الذي غاب فيه عنا ثلاثة أشهر!!

بادرت خديجة ابنتها شروق وهي تحاول أن تكون جادةً معها: اسمه بابا.

ضحىٰ: لا عليك يا أمي هل سمعت عبد الوهاب وهو يقول (الصب تفضحه عيونه)

الأم: بلاش غلبة، أبوكم علىٰ وصول، هيا لنكمل بقية

الطعام، فاذا ما دق جرس الباب يجد الطعام جاهزًا.

راحت خديجة تترقب وصول زوجها المهندس عبد الحميد، الذي كان يعمل مهندسًا للديكور وكان لديه مكتب استشاري بالشراكة مع بعض زملاء مهنته.

كانت تصوب بصرها عبر النافذة المطلة علىٰ الشارع العمومي، عساها تحظىٰ برؤيته وهو قادم اليهم.

***

راح عبد الحميد ينتقي من أفخم المحلات أفخر الثياب لبنتيه وزوجته، وقلبه يطير فرحًا وهو يشتري هذه الأشياء الثمينة لأحب الناس إليه.

يا لها من مناسبة جميلة ورائعة! أيكون أول يوم من إجازتي هو الموافق لعيد زواجنا أنا وخديجة؟!

حمل أشياءه ووضعها في شنطة سيارته، وانطلق يسابق الوقت، وأشواقه تسبقه إلىٰ أسرته الصغيرة التي يعيش معها في سعادة لا توصف.

لا يزال المحمول الخاص به لا يكف عن الرنين، إلا أنَّ

رقمًا غريبًا لا يعرفه لا يتوقف، اضطُرَّ وهو يمسك بمقود السيارة أن يرد علىٰ المتصل، بادره المتصل: هل المهندس عبد الحميد معي؟

عبد الحميد: مين حضرتك؟

المتصل: سكرتير الباشا.

عبد الحميد: مين الباشا؟

المتصل: سيد بك صاحب مجموعة سيدكو للمقاولات

عبد الحميد: أهلا بك أي خدمة؟

المتصل: الباشا عاوز حضرتك تشرفنا اليوم في مكتب المجموعة، وسأرسل لك الأبليكيشن علىٰ الواتساب.

عبد الحميد: بس أنا اليوم مشغول.

المتصل: هي نصف ساعة يا هندسة نتفق علىٰ العمل، وإن كان فيه نصيب نوقع العقود مع بعض، الساعة السادسة مساءً يناسبك؟

عبد الحميد: ربنا يقدر الخير.

أنهىٰ المتصل حديثه، وعبد الحميد يفكر في كيفية إقناع

الأسرة للخروج في مثل هذا اليوم الذي أعلنت فيه الأسرة عن حالة الاستعداد القصوىٰ لاستقباله!! كيف يتسنىٰ له ذلك؟

قطع تفكير عبد الحميد اتصالُ ابنته شروق به، وهي تستحثه ألا يتأخر عليهم فهم يتضورون جوعًا، وأخذت تداعبه كعادتها ببعض الكلمات التي كانت تدخل علىٰ نفسه السرور.

أخبرها بأنَّ أمامه نصف ساعة فقط ويكون في البيت.

أنتظر الجميع علىٰ طاولة الطعام، دق الجرس، تهللت أسارير خديجة، وتعلقت شروق وضحىٰ بالأب الحنون الذي لم يغب قبل ذلك كل هذه المدة.

أفرغ الجميع شحنات الشوق المتقدة بهذا العناق الدافئ مع رب الأسرة.

تناولوا الطعام، وجلس عبد الحميد علىٰ كرسيه المفضل، وأخذته غفوة أعادت إليه نشاطه بعد سفر شاق، ليجد خديجة تحمل فنجان القهوة المحبب اليه بعد وجبة الغداء بساعة.

كان عبد الحميد قد ضبط منبه المحمول علىٰ الساعة

الرابعة والنصف، وقد قص لخديجة ما كان من أمر مكالمة سكرتير سيد بيه المالك لمجموعة سيدكو للمقاولات، طلبت منه أن يعتذر لكنه أصر علىٰ الذهاب في الموعد.

ارتدىٰ ملابسه وودعته زوجته كعادتها عند خروجه، أما شروق وضحىٰ فقد أسرفتا في تلاوة أجندة الطلبات من والدهما، والذي كان يضحك ويومئ برأسه ويقول: من عنيا حاضر.

استقل سيارته وقام بتشغيل الأبليكيشن، وقاد سيارته إلىٰ حيث المكان والزمان والموعد المرتقب.

قاربت الساعة علىٰ السادسة، ولم يفصل عبد الحميد عن المكان إلا بضع دقائق كان خلالها أمام لافتة كبيرة علىٰ بناية ضخمة مكتوب عليها (مجموعة شركات سيدكو للمقاولات). استوقفه الحارس، فعرفه بنفسه، وابتلعت البوابة سيارة عبد الحميد الذي أشار اليه الحارس بالتفضل بالدخول.

استقبله شخص آخر -عرَّف نفسه بأنه مختص العلاقات العامة- ليسلمه لمكتب آخر يستقبله فيه رجل فارع الطول، حاد البصر، كأنَّ عينيه قطعتان من الجمر، صافحه وعرفه أنه

سكرتير الباشا الخاص ومدير مكتبه. جلس عبد الحميد يستمع لحكايات سكرتير الباشا ويتابع بإيماءات وابتسامات خفيفة لقطع ملل الوقت.

تفضل يا باشمهندس.

دخل عبد الحميد هذا البهو الوسيع الممتد، الذي يقبع في آخره رجل ضخم الجثة، غطَّىٰ عينيه بنظارة سوداء، استدارمن وراء مكتبه، وقام ليصافح عبد الحميد وقال له بصوت أجش: مرحبا بالمهندس الكبير. الفنان عبد الحميد ملك الديكور.

رد عبد الحميد التحية: أهلا بك يا سيد بيه.

سيد: كيف حال خديجة يا باشمهندس؟

عبد الحميد: بخير، ولكن لماذا هذا السؤال؟ هل تعرفها؟

سيد: ألا تعرفني يا باشمهندس؟

عبد الحميد: محصليش الشرف يا فندم.

وهنا خلع سيد بيك نظارته وقال له: أنا سيد ابن عم خديجة زوجتك.

دارت رأس عبد الحميد، وتوقف تفكيره تمامًا، وجحظت عيناه، وراح يتذكر تلك المآسي التي ذاقها هو وزوجته من سيد هذا التافه الضائع.

توقفت علىٰ شفتيه الكلمات، وراح يدور في دوامة الذكريات، لتطل عليه هذه المواجع من ثقوب الذاكرة.

***

٤

وبينما هي مسافرة عبر رحلة ذكرياتها إلىٰ زمنها الجميل، هبطت الرحلة هبوطًا اضطراريًّا علىٰ رنين جرس باب الشقة، فانتفضت خديجة ملتفته إلىٰ الباب الذي لم يَكُف عن الرنين المتلاحق، اتجهت مسرعةً صوب الباب، وعلامات الاستغراب والقلق ترتسم علىٰ وجهها، وقالت بصوت عال: من؟! من بالخارج؟! ولكن لا مجيب، التصقت بالباب ممسكةً بمقبضه متأهبةً خائفة، قالتها مرةً أخرىٰ بصوت أعلىٰ من بالخارج؟ فإذا بصوت امرأة تقول بصوت مرتفع في حزم: من بالداخل؟ من بالشقة؟

ازدادت خديجة قلقًا ورعبًا قائلةً: من أنت؟ ردت عليها بعد أن عرفتها، وقد هدَّأت من نبرة صوتها قائلةً: أنا مريم يا ديجة.

انفرجت أسارير خديجة، وفتحت الباب بسرعة خاطفة وهي ترحب بها قائلةً: أهلًا.. أهلًا يا خالة مريم.

مريم: أهلًا يا حبيبتي.

فتلاحما في احتضان طوقته ذكريات جميلة.

وبعد عناق طويل، وشوق أطول، جلسا معًا علىٰ أريكة بجوار الباب، بعد أن أزاحت خديجة الغطاء الذي كان عليها.

قالت الخالة مريم: قلقت كثيرًا يا بنيتي عندما سمعت الباب يُفتح، وكنت أصنع كوبًا من الشاي، فأبصرت من شباك المطبخ، فوجدت باب الحديقة مفتوحًا، ساورني الشك، ففكرت أن أنادي لأحد من الجيران كي يأتي معي، وأخذت عكاز عمك سمير معي، حتىٰ لو علمت أن لصًا يفتح الباب ضربته به، فوجدت أُناسًا كثيرين أمام عربة الفول، فاطمأننت وقلت أطرق أولًا علىٰ بابك، ثم أنادي عليهم فيلبون سريعًا، تابعتها خديجة وهي تبتسم، ترىٰ فيها أمها، والزمن الجميل، وذكرياتهما معها، وما لبثت أن انتهت من كلامها حتىٰ تابعتها خديجة قائلةً: لا تقلقي يا خالة، سأكون معك دائمًا.

قالت في اندهاش: ماذا تعنين؟!، لم أفهم ما تقصدين؟ هل ستعيشين هنا دائمًا وتتركين شقتك، وبناتك!! هل سيعيشون معك هنا أم لا؟!

ابتسمت خديجة قائلةً: سأشرح لكِ كل شيء يا خالة، لكن دعينا الآن نحتسي كوبًا من الشاي.

همت خديجة ممسكةً بحقيبتها الصغيرة، وأخرجت منها غلاية الكهرباء وأعدت الشاي، وبعد أن أعطت الخالة مريم كوب الشاي، بدأت معها الحديث: سأقص عليك يا خالة كل شيء عما حدث في حياتي، وكل شيء أنوىٰ فعله، فأنت تعلمين يا خالة كم أحبك، وأشعر بأنك مثل أمي رحمها الله تمامًا.

ربتت الخالة مريم علىٰ ظهرها قائلةً: وأنا أيضًا أحبك مثل ابنتي، وأحب أمك وأباك رحمهما الله، وخالك أحترمه جدًا فهو ذو ذوق وأدب.

ابتسمت خديجة واستطردت قائلةً: بعد وفاة أمي لم تطق بنتاي البقاء هنا، وأرادتا العيش في بيتنا، خاصةً بعد التحاقهما بالجامعة، وكانتا يتضجران لعدم استطاعة زميلاتهن المجيء إلىٰ هنا نظراً لبعد المكان عنهن، ولكن لم يكن بإمكانهما فعل شيء، وبعد الوفاة أصروا علىٰ الانتقال من هنا، حاولت أن يتم تأجيل ذلك، لكن محاولاتي باءت بالفشل بعدما ألحتا عليَّ فرضخت لرأيهما، وذهبنا جميعًا إلىٰ بيتنا طلبًا لراحة البنات هناك، أما أنا فكنت أشعر بأني استودعت روحي هنا، وكنت أشتهي اليوم الذي أسترد فيه روحي،

وبعدما تمت خطبة شروق قبل عام من تخرجها، وكانت ستسافر مع زوجها إلىٰ اليابان لاستكمال دراستهما هناك، عبر بخاطري أنه بإمكاني التأثير علىٰ ضحىٰ ونأتي هنا معًا، ولكن أثناء انتظار نتيجة شقيقتها وتجهيز شقتها، تمت خطبة ضحىٰ لشقيق صديقتها المقيم بالإمارات، وأتىٰ القاهرة في إجازة شهرين من عمله، وبعد الخطوبة سافر، ثم نزل مرةً أخرىٰ، ليقيم شهر العسل مع ضحىٰ، وسافر ليستكمل أوراق إقامتها، ثم سافرت وراءه لتستكمل دراستها هناك، وسافرت أختها بعدها بأربعة أشهر، بعد أن تزوجت هنا قبل سفرها بأسبوع، والحمد لله أتممت رسالتي بالنسبة لبناتي.

قاطعتها الخالة مريم قائلةً: لا لم تستكملي بعدُ رسالتك، لعل الله يرزقك أحفادًا تستكملين معهم رسالتك. نحن يا ابنتي نعيش لهم.

ردت خديجة: لا يا خالة، أنا لم أجعل حياتي وقفًا لهم، وهذه ليست أنانية، بل إنها أدوار، كل منا يتحمل مسؤولية دوره، فليس معنىٰ أني أصبح جدةً أن تُسلب مني كل حقوقي، فالمجتمع دائم الجلد للمرأة بكل حالاتها الاجتماعية، والعاقلة هي التي لا تلتفت لقوانين سلب حقوقها، فدائمًا

أقول للمتزوجات حديثًا اللاتي أعطيهن محاضراتٍ عن الأسرة عبر قناة باليوتيوب: "إنَّ للجدة حقوق، لا تسلبوها حقها، وتتهموها بعدم التعاون معكم، فحياتها كانت عبارةً عن جري وراء قطار الحياة، وها هي أخيرًا وجدت به مقعدًا لتستريح وتهدئ من تلاهث أنفاسها، لتستكمل المتبقي من حياتها علىٰ مهل، فلا تقتحموا عالمها الخاص، فحياتكم ليست حياتها، فدبروا أموركم وعليكم فقط إخبارها بما هو يدخل السرور علىٰ قلبها، واستبعدوا كل ما يعكر صفو حياتها".

وماذا إذن ستفعلين هل ستتزوجين؟!

ربتت علىٰ كتفها قائلةً: لا يا خالة الزواج ليس هدفي، وأنا لا أطيق ذلك بعد عبد الحميد الله يرحمه. هدفي هو أن أعلو بطموحي، فبعد أن كنتُ أخاطب الأسرة عبر قناة علىٰ اليوتيوب، أريد أن أنزلَ علىٰ أرض الواقع، لإسعاد الآخرين بما اكتسبته من خلال دراستي، وما قرأته عن فن التربية، وعلم الاجتماع والتنمية البشرية، وما اختزلته ذاكرتي من تجارب الحياة، وما علماني إياه أبي وأمي.

تتعجب الخالة مريم: إذن فلتشرحي لي ما تقصدين من كلامك هذا!

خديجة: سأقول لك كل شيء، ولكن دعيني أضعهم في خطوات سريعة، الأهم فالمهم.

أولًا: أريد سيدةً تعينني علىٰ تنظيف المنزل وترتيبه.

وثانيًا: أبحث عن بستانيٍّ يعتني بالحديقة ليعيد لها شبابها كما كانت من قبل.

ثالثًا: أريد نجارًا، وأسترجيًا، ومنجِّدًا، لإصلاح ما تلف من أثاث البيت، وحدادًا لإعادة تأهيل الأرجوحة.

مريم: ولم كل هذا؟! لماذا لم تحضري بأثاثك الثمين؟ فهذا الأثاث قديم جدًا يا بنتي (قالتها الخالة مريم وهي تنظر إلىٰ الأثاث بإشفاق) فهذا الأثاث يستلزم وقتًا فوق تكاليف إصلاحه! خديجة: أريد يا خالة أن أعيش في وسط هذا العبق، فكل قطعة تذكرني بأجمل أيام عمري مع أسرتي، وإن لها لرونقًا هنا، وأثاثي ببيتي هناك له أهميته لبناتي، فهو يمثل ذكرياتهم مع والدهم، وله في نفسي مكانة، كلما اشتاق لأيامي مع عبد الحميد أذهب هناك، وأسترجع ما كان بيننا من حبٍ ومودةٍ

وسكن، فلكل بيت من هذه البيوت لديَّ عشقٌ له مذاق خاص.

لكنني سأشتري بعض الأجهزة الكهربائية بدلًا من التي لا تصلح للصيانة، لإعانتي علىٰ المعيشة؛ انظري يا خالة، حتىٰ تلك الحوائط التالفة أريد إصلاحها، وإبقاءها علىٰ ما كانت عليه من قبل، كل هذا ما أريد فعله في الأيام المقبلة، ثم سأخبر حضرتك عن ما في جعبتي من خطط بعد أن تختمر تمامًا في عقلي.

ربتت الخالة مريم علىٰ ظهر خديجة وهي تبتسم قائلةً: يا ديجة، وجودك بجواري وسماعي لكلامك أشعل في قلبي نار الحماسة التي لا أريد لها أن تنطفئ، وأنزل علىٰ همتي النشاط والقوة، فلا تحملي همًا بعد اليوم لأي شيء تريدينه، واتركي موضوع الخادمة فسأتصل بها الآن، أما بالنسبة للمنجد والأسترجي والحداد فهذا أمر سهل للغاية، لأنهم بجوارنا وسأذهب لهم في المساء، أما المشكلة فهي تكمن في الاعتناء بالحديقة، ولكن لابأس فسوف أسأل أحبابي.

قاطع كلامهما صوت آذان الظهر من المسجد المقابل للبيت، وهنا قامت الخالة مريم متجهةً لباب الشقة قائلةً: لقد

مر الوقت سريعًا، سأذهب لشقتي، وأعود إليك مرةً أخرىٰ.

رجتها خديجة أن تمكث قليلًا، ولكنها أصرت علىٰ الخروج، فتبعتها خديجة حتىٰ باب الحديقة، مؤكدةً أنها في انتظارها.

بعدما أدت خديجة صلاة الظهر، تجولت في شقتها، وفتحت كل نوافذ الشقة، وسمحت لشعاع الشمس الذهبي أن ينير كل ركن من أركان الشقة، زارتها ذكريات منحتها الدفء والأمان، وهي واقفة علىٰ باب حجرتها، تجول بشاشات عينيها في كل ركن فيها، أفاقت منها علىٰ واقع لابد أن تجد له حلًا، ولسان حالها يقول:

لا مفر يا خديجة، لابد من تنظيف هذه الحجرة علىٰ الأقل لأستريح فيها، ولكن عليَّ أن أحتسي أولًا فنجانًا من القهوة، وبعدها أشرع في العمل.

وبينما هي تمسك بيدها فنجان القهوة، وهي جالسة في شرفة حجرة الطعام المطلة علىٰ تكعيبة العنب، غاصت في بحر من الأفكار والتساؤلات، هل استعجلتُ بقراري هذا؟ هل كان عليَّ التمهل قليلًا؟

هل كان لا بد أن أجد من يساعدني في البيت؟

آه!! أين أنت يا أم سعاد؟!

أمسكت بهاتفها واتصلت بها، ولكن هيهات فما زال هاتف أم سعاد مغلقًا، دعت ربها أن يعينها علىٰ ما ستقوم به.

ومع أول رشفة من معشوقتها بنت اليمن شردت بعيدًا، تذكرت حديثها مع عبد الحميد وهم يحتسون القهوة في ذلك اليوم الذي عاد فيه من عند سيد ابن عمها.

***

٥

وما أن أفاق عبد الحميد من الصدمة حتىٰ باغته سيد بيك بقاصمة أخرىٰ، عندما أخبره أنه يعلم بحرفيته ومهارته في فنون النحت، وأنه يتابع أخباره كلها، وأنه حصل علىٰ رقم الهاتف الخاص به من أقرب الناس اليه، صديقه جابر وزميله في الجامعة، إلا أنَّ جابرًا تم تعينه بهيئة الآثار.

راح عبد الحميد يفكر في ذات الاسئلة التي أجابه عنها سيد بيك دون أية مواربة، لكن ثمة أسئلة قفزت إلىٰ لب تفكيره.

ماذا يريد منه؟ ولماذا يتتبعه؟ وماذا يعرف عنه غير ما ذكره له سيد؟ وهل وصلت العلاقات بين الصحب والزملاء إلىٰ حد كشف أسرار البيوت؟!

تغير لون وجه عبد الحميد، وبدا عليه الاضطراب، وأخذ موقع السائل والمستجوب لسيد:

ماذا تريد مني؟ ولماذا تلاحقني وتحاول التعرف علىٰ كل أحوالي؟!

رد عليه سيد بك: أنا أريد لك الخير، ولابنة عمي،

وعندما يكون زوجها غنيًا فإن ذلك يسعدني، وأنا أحتاجك معنا في أعمال كثيرة، وأنا لديَّ مجموعة بازارات عندكم بالأقصر، ونريد أن نسوق للسياح حضارة بلادنا، كل ما عليك أننا سنأتي لك بتصميمات بعض التماثيل الفرعونية وستقوم بنحتها وسيتم بيعها، وهي خدمة جليلة للبلاد.

عبد الحميد: لماذا تم اختياري؟

سيد: لأن لديك قدرة هائلة في النحت، وتقليد التماثيل، مما يصعب علىٰ البعض التعرف علىٰ الأصلي من المصنوع.

عبد الحميد: وهل تحتاج ذلك من أجل تنشيط السياحة؟

سيد: نعم؛ لاشك في ذلك.

عبد الحميد: أعطني مهلةً لأفكر.

سيد: كما تحب، وهذا هو رقم محمولي، لتتصل عند الوقوف علىٰ قرار، ولن تندم أبدًا وربما تستقيل من عملك، وتأتي لتشاركني، أنت بمجهودك وأنا بأموالي.

بعد أن فرغ عبد الحميد من قهوته سأل سيد بيك: وما دخل جابر في الموضوع؟!

سيد: صديقك جابر، والذي كان معك في كلية الفنون، والذي يعمل بهيئة الآثار، يساعدنا بتصوير بعض النماذج من المخازن، ونحن نقوم بتصنيعها بشكل حرفيٍّ، ونبيعها في البازارات، وننشط بذلك السياحة، فهذه النماذج تساعد في تجميل صورة بلادنا، ونقل حضارة سبعة آلاف عام إلىٰ العالم كله. الموضوع يا باشمهندس فيه خير كثير لك ولنا ولبلادنا الحبيبة.

"ربنا يقدر لنا الخير" قالها عبد الحميد قبل الانصراف، وعندما هم بالوقوف للانصراف، تحدث سيد بك إلىٰ مدير مكتبه، الذي دخل وهو يمسك بيده علبةً فاخرة، قام بتقديمها إلىٰ المهندس عبد الحميد، والذي سأله: ما هذا؟

رد عليه سيد: هدية متواضعة لزوج ابنة عمي صهرنا العزيز، وعربون محبة، ولا تردني فالنبي ﷺ قبل الهدية.

أصر عبد الحميد علىٰ موقفه، إلا أن سيدًا أقسم عليه وقال له: اعتبرني زرتكم بشقتكم وأحضرت هديةً معي.

بعد إلحاح سيد استجاب عبد الحميد، علىٰ أمل أن يردها إليه في أقرب مناسبة.

خرج عبد الحميد ورأسه تكاد تنفلق من هول المفاجئة، ومن التفكير في العمل مع سيد، وساوس كثيرة؛ لماذا، وكيف، وهل، وغيرها!! أسئلة كثيرة تدور بالرأس تحتاج إلىٰ إجابات.

صراع نفسي: ولم لا أعمل معه؟! تراه نسي ما فعلته معه خديجة عندما فضلتني عليه؟ هل يريد أن يثبت لي ولها أنه هو الأغنىٰ والأقوىٰ، صاحب المال والنفوذ، أنا لا أرىٰ بأسًا في العمل معه، خاصةً أنه مشروعٌ قوميٌّ يهدف إلىٰ تنشيط السياحة، علاوةً علىٰ أنه سيحل لي عدة مشاكل مالية تراكمت عليَّ نظير أقساط الشقة، ومصروفات المدارس الخاصَّة.

عبد الحميد يقود سيارته عائدًا للبيت ، وهو يريد أن يأخذ قرارًا حتىٰ يرد علىٰ سيد.

وصل عبد الحميد البيت، وقدم الهدية التي كانت معه لزوجته وابنتيه -وهو لا يعرف ما بداخل العلبة- بعد أن حكىٰ لخديجة كل ما حدث، والتي بدورها حذرت عبد الحميد من ألاعيب ابن عمها، ولكنها وبعد مشاورات عديدة وافقت مكرهة، وأصرت علىٰ إعادة الهدية، ولكن عبد الحميد رفض لأن ضحىٰ وشروق أخذت كل واحدة "الانسيال الذهب"

ولبسته. فأقنع عبد الحميد زوجته خديجة بأنه سيرد ثمنهما من أجره في العمل مع سيد.

حسم عبد الحميد الأمر مع زوجته، وأخبرها أنهم في حاجة إلىٰ المال لتسديد الديون التي تراكمت عليه بسبب قسط الشقة، ومصروفات المدارس الخاصة لبنتيه، وأنه يعمل في الكسب الحلال.

رجته خديجة ألا يقبل العمل مع ابن عمها، ولكنه لم يستجب لتوسلاتها، وراح يتصل بسيد حتىٰ يخبره بالموافقة، ويطلب منه موعدًا حتىٰ يبدأ العمل معه.

فرح سيد، وذلك لأنه سوف يربح الملايين من وراء عبد الحميد، وحتىٰ يكون قريبًا من خديجة التي رفضته، وفضَّلت عليه هذا الذي صار يعمل عنده، وحتىٰ تعرف أن سلطان المال ونفوذه أقوىٰ من أي شيء.

تم الاتفاق بين عبد الحميد وسيد بك، وتم تحديد موعد بدء العمل، وذهب المهندس عبد الحميد لفيلا الرجل حيث ضرب الموعد هناك، دخل عبد الحميد ليجد ورشةً للنحت قد تم تجهيزها علىٰ أحدث طراز، مع تطور المعدات

المستعملة، والتي كان يتابعها عبر تصفحه مواقع النحاتين العالميين، لأن هذه هوايته منذ الصغر، منذ أن كان يصنع هذه التماثيل من الصلصال وهو في المدرسة الابتدائية.

أحس عبد الحميد أنه قد حان الوقت ليتكسب من هوايته، وكفىٰ ما ضاع من عمره باشتغاله كمهندس ديكور.

أتقن عبد الحميد في أول تمثال صغير أحضروه له ليصنع منه عدة تماثيل، وبدأت الأعمال تتطور أكثر فأكثر، من تنوع للتماثيل وبعض الانتيكات وبعض التحف، كل ذلك وسيد بك ينفق بسخاء، حتىٰ أحس عبد الحميد أنه بدأ في تحقيق ذاته من خلال ممارسة هذه الهواية الممتعة بالنسبة له.

قام عبد الحميد علىٰ الفور بتقديم طلب إجازة لمدة سنة كاملة، لأن ما يتقاضاه من صناعة التماثيل بالنحت في أسبوع، توازي ما يتقاضاه من عمله كمهندس ديكور في ستة أشهر، وبدأت العلاقات تتوطد ما بين المهندس عبد الحميد وسيد بك، الذي أغدق الأموال عليه بعد أن مهد له طريق اللاعودة، وبدأت العلاقة تتطور أكثر فاكثر، حتىٰ طلب سيد من عبد الحميد أن يصنع له تماثيل مطلوبة منه في وزارة السياحة، لكن

علية أن يذهب بصحبة جابر زميله إلىٰ مخزن من مخازن الآثار بإحدىٰ المتاحف، حتىٰ يستطيع أن ينفذ التمثال بشكل دقيق فيكون المصنوع كالأصلي تمامًا.

دخل عبد الحميد مع جابر الذي سهل له المهمة عن طريق الحارس الذي فتح لهما، وراح عبد الحميد ينظر بإكبار وإجلال إلىٰ هؤلاء العظماء عبر التاريخ، وقد أشار جابر إلىٰ عبدالحميد أن يصور بدقة أحد التماثيل والتي سيقوم بصناعتها.

صور عبد الحميد التمثال بكاميرا حديثة أحضرها معه جابر من جميع الزوايا، وأخذ يتفحص التمثال (الفرعون الصغير) القابع في المخزن، يقلبه من كل ناحية، وبعد أن انتهىٰ من التصوير والفحص سأل جابر لماذا نقوم بذلك هذه المرة؟ فأجابه لأن هذه المرة سيكون نصيبك أكبر ربما يكون مئات الآلاف.

انصرف الاثنان من المخزن، وقد لمح عبد الحميد جابرًا يناول الحارس رزمة من النقود.

تسلل الشك في نفس عبد الحميد، الذي راح يسأل نفسه،

ما سر كل ما يحدث؟ هل تراني أشارك هؤلاء في جريمة تهريب آثار؟ كنت أظن أن المسألة هي عبارة عن تقليد بعض التماثيل لبيعها للسياح بهدف ترويج السياحة، كيف أتحقق من ذلك؟ أنا لا أملك أي دليل علىٰ حقيقة شكوكي هذه اللهم سوىٰ ما حدث اليوم. كيف تم فتح المخزن بهذه السهولة؟ ولماذا أعطىٰ جابر هذه الأموال للحارس؟ ولماذا أخبرني بأن نصيبي سيكون مئات الآلاف؟ وأنا الذي أتقاضىٰ منهم بضعة آلاف في الشهر!!

راح الشك ينشب أظفاره في صدر عبدالحميد، وكادت رأسه أن تنفلق من الصداع والتفكير.

ذهب إلىٰ بيته مهمومًا بشكل لم تعهده خديجة، هل يقول لها؟ أم يصارح سيدًا؟ أم يحاول جر صديقه جابر في الحديث؟ ثمة أسئلة جعلته لم يذق طعم النوم؟ قام وتوضأ وصلىٰ لله ركعتين، ذرف خلالهما الدموع وهو يناجي ربه أن يجعل له مخرجًا، وأن يجد إجاباتٍ علىٰ شكوكه.

اتصل بجابر ليستفسر عن أهمية ما حدث، فأخبره أنَّ الموضوع لا يصلح فيه التليفون، وأنه ينتظره في الغد ليشرب

معه القهوة في أي مكان يحدده عبد الحميد، وأنَّ اللقاء سيكون في السادسة مساءً.

ظهر الاضطراب علىٰ عبد الحميد، وقد لاحظت خديجة عليه ذلك فسألته فلم يعطها إجابةً شافية، وتعلل بأنه مشغول في العمل، وأنه سيخلد للنوم.

قال جابر لعبد الحميد أثناء لقائهما مالك بس يا فنان؟ الموضوع بسيط، وكما ترىٰ المخازن مليئة بالتماثيل التي ليس لها قيمة، إلا ما تصنعه أنت ونبيعه للسياح، فتكون قيمته أعلىٰ من الأصلي، ومعنا صفقة كبرىٰ هي أننا سنبيع ما ستصنعه إلىٰ السياح علىٰ أنه أصلي بملايين الدولارات، وأنَّ هؤلاء الذين سيشترونه لن يفرقوا بين الأصلي والمزيف، لأن تصميماتك لا يستطيع أحد أن يشك فيها.

ثار عبد الحميد: كيف تفعل معي هذا يا جابر؟ هل هذه أصول الزمالة؟ كيف أساهم في خداع الناس؟! إذن أنتم عصابة.

جابر: اهدأ يا عبد الحميد، وخذ الموضوع ببساطة وأريحية.

عبد الحميد: لن أفعل ما تطلبونه مني، لو فعلت فأنا مشارك معكم.. لا لا لا.

علا صوت عبد الحميد فهدأه جابر وقال: له فكِّر في الأمر جيدًا. وانصرف وترك عبدالحميد غارقا في أحزانه، وتفكيره الذي هداه إلىٰ إبلاغ الشرطة، حتىٰ يجد لنفسه مخرجًا، وحتىٰ لا يتورط في أعمالٍ لا تتفق وقيمه وأخلاقه.

وهناك حكىٰ القصة، وطلبت منه الشرطة صناعة التمثال المزيف، وتنفيذ ما طُلب منه، علىٰ أن يخبرهم بكل التفاصيل، وقالوا له نحن سنحميك، وحاول أن تبدو معهم طبيعيًّا.

انصرف عبد الحميد ليجد هاتفه يعلن عن استقبال مكالمة من سيد بك، فقام بالرد عليه وطلب لقاءه فوافق، وتوجه إليه، وهناك أبدىٰ المهندس عبد الحميد أن مخاوفه هي التي أدت إلىٰ انفعاله مع جابر، وأخبره بأنه علىٰ استعداد لتكملة عمله.

كانت الشرطة قد أخبرت عبد الحميد، بعمل علامة دقيقة في التمثال المصنوع، لا يعرفها إلا هو، وفعلًا قام عبد الحميد بعمل التمثال، الذي استغرق معه ثلاثة أشهر. وقام

بتسليمه لرجال سيد بك.

بالليل ذهب جابر ومعه بعض الرجال، بعد أن اتصل بحارس المخزن الذي فتح لهم، فقاموا بوضع التمثال المزيف، وأخذوا الأصلي وانطلقت السيارة إلىٰ حيث تسليم الفرعون الصغير إلىٰ العصابة الأكبر، والتي كانت بانتظارهم بجراج السيارات بفيلا الباشا سيد بك.

ذهب عبد الحميد إلىٰ منزله، وهو مستريح الضمير، لكنه غير مطمئنٍ لما يمكن أن يحدث له نتيجةً لإبلاغه الشرطة. استيقظ كعادته حاول أن يبدو طبيعيًّا مع زوجته وابنتيه.

في الصباح، أعلن هاتفه عن ورود مكالمة من أحد زملاء الدراسة، والذي أخبره بأن زميلهم جابر تم القبض عليه هو ومجموعة من مهربي الآثار.

قال زميله ألم تشاهد التلفاز؟ فقد تم الإعلان عن ذلك منذ قليل، وأنَّ زملاءه بهيئة الآثار قد أبلغوه بذلك، وعلىٰ الفور قام بفتح التلفاز، الذي أعلن عن قيام الشرطة بالقبض علىٰ عصابة تقوم بتهريب الآثار خارج مصر.

حمد الله واستراح قلبه، وقد ارتدىٰ ثيابه بعد أن تناول

الغداء مع أسرته، سألته خديجة: إلىٰ أين؟

فقص عليها القصة كاملة، وقال لها: سأذهب لمقابلة زميلي الذي أخبرني منذ قليل فربما أجد معه بعض التفاصيل.

خديجة: ألن تشرب القهوة التي تعودت عليها بعد قيامك من القيلولة؟

عبدالحميد: سأشربها مع زميلي.

خرج عبد الحميد، وفتح باب السيارة التي أبت أن يدور محركها، ترجل قليلًا، أوقف تاكسي أجرة، لكنه لم يكمل فتح باب التاكسي حتىٰ عاجلته رصاصات، سقط علىٰ إثرها غارقًا في دمائه.

كان قلبه لا يزال ينبض، تجمع الناس وأخذوه لأقرب مستشفىٰ، ومعهم السائق الذي حكىٰ ما حدث في النيابة.

خديجة تجلس مكانه، تتخيل أنه بجوارها بعد أن صنعت له فنجان القهوة، رن هاتفها إنه عبدالحميد، ولكنه ليس صوته، سألها المتصل: هل حضرتك زوجة عبد الحميد؟

أجابت: نعم، ما الخبر؟ هل نسي المحمول عندكم أم وقع منه؟

الرجل: لا يا مدام عبد الحميد في المستشفىٰ بالمهندسين.

وأعطاها العنوان. ذهبت خديجة لتجد عبد الحميد وقد وقف الأطباء يحاولون إيقاف النزيف ولكن دون جدوىٰ.

يرمقها عبد الحميد بنظراته التي راحت تودعها للأبد، لفظ أنفاسه الأخيرة، صرخت خديجة صرخةً دوت في جنبات المستشفىٰ، لتصاب بانهيارٍ عصبي.

بعد هذه الذكريات الأليمة، وجدت نفسها غارقةً في دموعها، عندما أطالت النظرة إلىٰ صورة فرحها مع عبد الحميد، اجترت كل هذه الأحداث المؤلمة.

أخذت خديجة تبكي كما لم تبك من قبل، تجرعت خديجة أوجاعًا كثيرة لسنواتٍ عديدة بعد رحيل زوجها، وهي تحاول أن تعرف الفاعلين لهذه الجريمة البشعة، حتىٰ أعيتها المشاوير وأضناها التعب فسلمت أمرها لله، واستسلمت لقدرها عازمةً علىٰ مواصلة حياتها.

***

٦

أخرجها من هذه الذكريات الموجعة اتصال الخالة مريم، تخبرها بأنها ستأتي ومعها أم هاني لتمكث معها ثلاث ليال، تنظف وترتب الشقة، فرحت خديجة بهذا الخبر جدًا.

دخلت الخالة مريم شقة خديجة، وقد أحضرت لها وجبةً ساخنةً من السمك المشوي، وجلستا تجتران الذكريات أثناء تناولهما الطعام.

خديجة: سلمت يا خالة مريم، إنَّ طعمه لذيذ، أشعر وكأنني لم أتذوق سمكًا قبله.

مريم: بالهنا والشفا حبيبتي، إنني دائمًا أحب أن أشتريه من المطعم المجاور لنا، وقلت لابد أن تتذوقيه مثلي لأني أحببته فعلًا، حدثيني يا خديجة ما الهدف من بقائك هنا، وتركك لمنزلك؟ قالتها الخالة مريم وهي تحتسي الشاي مع خديجة في شرفة غرفة الطعام

تنهدت خديجة وهي تهم بأخذ كوب الشاي من علىٰ المنضدة المقابلة لها وقالت:

آه يا خالة، لقد فكرت كثيرًا بعد زواج البنتين وسفرهما،

وحدثت نفسي كثيرًا هل أنتظر سؤالهما عنِّي كلَّ يوم؟ أم أنام ليلًا ودموعي علىٰ وجنتيَّ أتسول من يمسحها؟ أم أنظر كل دقيقة إلىٰ هاتفي وكلي شوق أن أسمع صوتهما؟ إني أعلم أنَّ الحياةَ قد أغرقتهما في دوامتها وخاصةً أنهما يدرسان ويعملان في نفس الوقت، والحياة الزوجية شاقَّة عليهما بالغربة، وأخشىٰ أن ينزغ الشيطان بيننا، فيوغل صدري تجاههما، فأردت أن أقطع الطريق عليه، وأغلق هذا الباب نهائيًا، وتساءلت: هل خُلقنا لتربية أبنائنا وفقط؟ وماذا عن الذي لم يرزق بالذرية إذن؟ فهناك شيء آخر خلقنا من أجله، في طريق متوازي أو متوالي مع التربية، حسب قدرة كل فرد ألا وهو الاستخلاف في الأرض.

تعجبت مريم: الاستخلاف!

استطردت خديجة: نعم يا خالة، خلقنا الله وجعلنا خلائف في الأرض، لبناء الإنسان والتراحم بين الأهل والجيران، والتواصل مع من نعرف ومن لا نعرف، وتزكية النفس وإعمار الأرض.

قطبت الخالة مريم حواجبها، مما زاد من تجعيد وجهها

التي رُسمت بفرشاة الزمن، وقالت في تعجب: لم أستطع يا خديجة فهم ما تريدين!

واصلت خديجة مبتسمةً: انظري يا خالة إلىٰ تكعيبة العنب هناك، ذلك ركن ساعة العصاري كما كانت تسمية أمي، هناك كنت أجلس كل يوم مع أسرتي بعد صلاة العصر، نتناول الشاي والعصائر وبعض الحلوىٰ التي كانت تصنعها أمي، وكنا نستمع لبعضنا البعض، وأتذكر أنَّ أمي وأبي لم يملَّا أبدًا من حديثنا ومشاكلنا ونحن صغار، رغم عدم أهمية تلك الحكايات، فهي حكايات الطفولة البريئة، كم كانت أمي عظيمةً وأبي كذلك، أنا لم أشعر بذلك إلا بعد أن صرت أمًّا، كانت شروق وضحىٰ تأتيان إليَّ بحكايات كلها عفوية وبساطة، وكنت أستمع اليهما رغم انشغالي بالكثير، وكان أبي وأمي رحمها الله يقصان علينا من تجاربهما في الحياة بطريقة مبسطة لعمرنا، حتىٰ بعد سفر خالي ووفاة أبي، أصبحت أنا وأمي نقضي معظم أوقاتنا هناك، ولم نكتفِ بوقت العصاري فقط، وحتىٰ بعد وفاة عبد الحميد، أتيتُ هنا للعيش مع أمي، ألزمت بناتي بهذا النظام، ما أجمل أيام الطفولة حين تستدعيها الذاكرة، لنستعين بها علىٰ عمل نطبق فيه ما كنا نفعله بالطفولة،

فأمي كانت في طفولتنا تعلمنا مهارات كثيرة، مثل صناعة ألعابنا بأنفسنا ودمياتنا الخاصة، والتي ليس لها مثيل في محلات اللعب، وكذلك مهارات الرسم وتدوير الأشياء القديمة واستغلالها للاستفادة منها، أما أبي الذي أهدي إليه كل نجاح بحياتي، بسبب طريقته الشائقة في أن يجعلنا نحب القراءة في كل المجالات، مما أفادني كثيرًا، وكان يصر علىٰ أن يناقشنا فيما نقرأ حتىٰ تعم الفائدة علىٰ الجميع، وعندما كان يحين وقت غروب الشمس، كنا نوقف جميع الأنشطة ونتفرغ لقراءة القرآن وأذكار المساء، وهذا ما أريد عمله مع أطفال الحي وخاصة أطفال الشوارع بالحي.

عقبت مريم: أعلم يا بنيتي كل هذا، وخاصةً بعد هجرة فؤاد لكندا، والدتك لم تتركني، وكانت كل يوم تتصل بي، كي أجلس معها ونشرب الشاي معًا هناك في التكعيبة، ونأكل الشطائر التي أصنعها، أو الكعك اللذيذ الذي تجيده صنعه الست والدتك الله يرحمها، حتىٰ أصبح ذلك شيئًا مقدسًا بالنسبة لي، فأنت تعلمين قدر أمك وأبيك عندي، وخاصةً بعد وفاة عمك سمير، وكان فؤاد مازال في المرحلة الثانوية، وليس له دراية بالأمور الحياتية، فأتىٰ إلينا والدك، وأنهىٰ لنا إجراءات

معاش عمك سمير، وكان يتفقد أحوالنا دائمًا، ولا أنسىٰ يوم أن ذهب مع فؤاد إلىٰ الجامعة وكان فؤادُ سعيدًا، كأنه يسير مع أبيه، وأذكر عندما كان صغيرًا كنت أتركه مع والدتك وأذهب إلي السوق، وعندما أعود أرجوه أن نذهب لشقتنا كان يتشبث بوالدتك ولا يتركها إلا عندما أعده بأننا سوف نعود لها باليوم التالي، وكان يقضي لوادتك حاجياتها بعد سفر خالك وانشغالك بزواجك وكان يقول لي هذه مسؤليتي وهذا واجب علي، فهي بمثابة أمي، ولكن قالتها بعد تنهيده عميقه:

لست أدري ما الذي أصاب فؤادًا بعد التحاقه بالجامعة ،كان دائم الشجار معي كلما علم أنني جالست أمك أو هاتفتها، وكان يتفوه بكلام لم أفهمه منه ولم أربِّه عليه، منهم لله أصدقاء السوء الذين أوغروا صدره تجاهكم وتجاه المسلمين، وجعلوه يكره الناس، وعندما فكَّرَ وقرر الهجرة لم أكن أعرف لكنه فاجأني، ولم يفكر لحظةً كيف سيتركني وحيدةً وهو ابني الوحيد، ألقىٰ عليَّ خبرَ سفرِه لكندا كالصاعقة، وسافر وتزوج، ولم أعلم بزواجه إلا بعد أن أنجب.

تحجرت الدموع في مقلتي الخالة مريم وغالبت

انهمارها ، لكنها تدفقت غزيرة وهي تقول معذرةً فأنت مثل ابنتي تمامًا.

هبت خديجة من مجلسها وقبلت رأسها، وكفكفت دموعها التي كانت قد عصتها، فتساقطت زخات زخات، ونظرت لعينها قائلةً:

لا تبكي يا حبيبة القلب، فإني سأبقىٰ معك هنا دائمًا لن أتركك ما حييت.

احتضنها الخالة مريم وربتت علىٰ ظهرها وهي تقول:

العمر الطويل لك يا بُنيتي؛ استكملي يا حبيبتي، معذرةً؛ لقد عكرتُ صفو مزاجك المتفائل، سامحك الله يا فؤاد.

استطردت خديجة قائلةً: لا عليك يا خالة، تحدثي بما تحبين وقتما تشائين.

وهنا سمعا صراخ أم هاني الذي قطع حديثهما، فما كان منهما إلا الهرولة إليها، ليجدا أن درفة الدولاب العليا قد وقعت عليها، همت خديجة بمساعدة أم هاني، والخروج بها من الشقة إلىٰ المركز الطبي المجاور للبيت، وهناك قاموا بتمريضها وعمل اللازم لها.

راحت إحدىٰ طبيبات المركز تنظر إلىٰ خديجة بشكل لافت ، ولكن خديجة لا تعرف سر هذه النظرات الغامضة، التي كانت تراها في عين هذه الطبيبة، ولكن سرعان ما أهملت تلك النظرات عندما نادت عليها الممرضة لتطمئنها علىٰ أم هاني، وإرشادها لكيفية الغيار علىٰ الجرح بالمنزل.

٧

كانت أشعة الشمس العصرية تعم الحديقة أثناء تفقد خديجة لها بعد شهر من التجهيزات فوجدتها تجسيدًا لحلمها علىٰ أرض الواقع مما زادها أملًا وتفاؤلًا.

فهنا أقامت أحواض كثيرة، وصنابير للمياه واحدة تلو الأخرىٰ، ومرآتان كبيرتان واحدة عند مدخل الحديقة، والأخرىٰ بعد آخر صنبور، وفرشت الأرض بطاولات وكراسي بلاستيكية ملونة، وهناك في ركن بعيد وضعت موقدًا كبيرًا، ومنضدةً كبيرةً أمامه، وبجوارهما عدد من الأرفف، وهذه خزانة خشبية كبيرة، مقسمة لعدة أقسام صغيرة، وضعت في كل قسم أدوات نظافة من أمشاط، وفرش أسنان، ومقصات، وفوط قطنية، وبدل رياضية للبنات والأولاد، وأحذية رياضية، وهذه الخزانة بجوار حجرة خشبية صغيرة لتبديل ملابس الأطفال.

كانت تتفقد كل ذلك بقلبها قبل عينيها التي نظرت بهما إلىٰ ركن ساعة العصاري، الذي ذهبت إليه لتتفقد المكتبة التي وضعتها هناك، وأخذت إحدىٰ الكتب منها، وقبل أن تشرع في الجلوس علىٰ الكرسي المجاور للمكتبة، إذا بصوت

الخالة مريم يناديها فانتبهت لها، ولكنها لم تكن بمفردها، بل كان معها ضيفة، وما إن تفحصتها خديجة وهي مقبلة عليها، حتىٰ خلعت نظارتها الشمسية التي كانت تغطي نصف وجهها، فإذا بخديجة تجري عليها بلهفة قائلةً:

لا أصدق عيني.. وفاء صديقة الطفولة والصبا!!

واحتضنتا بعضهما في مشهد رائع، جعل دموع الخالة مريم تنهمر علىٰ وجنتيها وهي تقول: يا ليت ربي يجمع شملي بابني كما جمع شملكما.

وهنا جريا عليها وقبلاها قائلين: إن شاء الله يا خالة.

واستكملت خديجة: لعله قريب.

جلست خديجة ووفاء يتذكران أيام الطفولة والصبا والخالة مريم تتابعهما ثم استطردت قائلةً: أين كنتِ يا وفاء كل هذا الوقت؟ لم أرك تزورين والدك منذ فترة؟!

أرخت وفاء ظهرها إلىٰ الوراء وتنهدت وقالت بأسًىٰ: آهٍ يا خالة؛ يا ليتنا لم نضغط عليه ليتزوج، كنا نظنها سيدةً عاقلةً ومحترمة، ولكن حدث ما لم يحمد عقباه، فقبل الزواج لم تطلب شيئًا من والدي، ولكنه أصر علىٰ إعطائها مبلغًا من

المال، لتشتري به ما تشاء، لأنها كانت مطلقةً ولم يعطها طليقُها أي شيء، بل أخذ منها كل شيء، ولكننا فوجئنا بعد زواج أبي بعدة أشهر -عندما كنا نزوره- أنها لا تطيقنا، بل تتمادىٰ في إحراجه أمامنا، واجتمعنا معه لنعرف سبب هذه المعاملة لنا، ولماذا يُبقي عليها؟ للأسف فوجئنا بإلقاء قنبلة علىٰ وجهنا، لقد ملَّكها شقته تحت ضغط منها، وكانت تهدده بطلب الطلاق كلما ذهبنا لزيارته، فآثرنا عدم المجيء له، وكنا نلتقي به في النادي، وكأنها تنتقم من طليقها في شخص والدي، وكان قد طلب مني أكلات بيتي لأنها لا تطبخ له منذ فترة، وتشتري أكلات من المطاعم، وهذا مخالف لتعليمات الطبيب، نظرا لمرضه بارتفاع الضغط،

- ألم تكن تعرفينها يا بُنيتي من قبل؟

- كنا نحضر معًا يا خالة محاضرات عن العلاقات الأسرية، وكانت صاحبة رأي سديد مما أبهرني بها.

- وهل كل صاحب رأي سديد يطبقه في حياته، فهناك من هم متعبون في حياتهم ويريدون أن يظهروا للآخرين بالمثالية، قالتها خديجة وهي تقدم العصير لها.

بالفعل يا خديجة لم نعرفها إلا بعد التعامل معها، المهم وأنا في طريقي لسيارتي، رأيت شبابيك الشقة مفتوحةً فاتصلت بالخالة مريم لأطمئن، فأخبرتني بأجمل خبر وهو وجودك هنا يا ديجة.

خديجة: كم أنا فرحة للغاية لرؤياك يا عزيزتي، ولكن أخبريني ألم تشرعوا في وجود حل لمشكلة والدك مع زوجته؟

وفاء: بالفعل لقد نوينا أنا وإخوتي عقد اجتماع، لوضع حل لهذه المسألة، ولكن بعد أن يأتي إخوتي في أجازتهم السنوية من الخارج، فأنا لا أستطيع...

وهنا قاطعها رنين هاتفها الذي قلقت وهي تنظر إلىٰ اسم المتصل، وبعد أن قامت بالرد عليه حدثتهم وهي تجري لخارج البيت قائلة: إنها زوجة أبي تخبرني بأنه انزلق علىٰ السيراميك الآن.

- انتظري سأحضر معك يا وفاء.

قالتها خديجة وهي متجه لباب الحديقة، ناظرةً خلفها قائلةً أستأذنك يا خالة أن تبقي بالمنزل حتىٰ أعود.

طمأنتها الخالة مريم وقالت لها: لا تقلقي حبيبتي، فقط طمئنيني عليكم.

وفي اليوم التالي، استيقظت خديجة علىٰ جرس الباب، فإذا بالخالة مريم جاءت تطمئن عليها، لتأخرها في الاستيقاظ علىٰ غير عادتها.

قالت معتذرةً عن عدم مسارعتها بفتح الباب:

لقد كانت ليلة أمس مرهقةً للغاية، لذا لم أستيقظ مبكرًا، فما حدث لوالد وفاء، والذهاب به إلىٰ المشفىٰ، وانتظار سيارة الإسعاف لإحضاره للبيت، كل ذلك كان كفيلًا ألا أشعر بالوقت لقد كنت في سبات عميق.

- وهل وفاء هنا عند والدها؟

قالتها الخالة مريم وهي تشرب الشاي مع خديجة بعد تناولهم الإفطار معًا.

خديجة: لا؛ لقد هاتفتني بعد ذهابها لمنزلها، لأنَّ أولادها سيذهبون مبكراً للمدارس وقالت إنها سترتب أمرها لتجلس مع والدها، بعد أن صرحت لها زوجته أنها لا تقدر علىٰ خدمته وأن أولاده أولىٰ أن يخدموه.

٨

تغدو خديجة وتروح أمام باب المدرسة في انتظار صديقتها، وقد ذهب عامل المدرسة ليستدعيها لها، وبعد فترة من الوقت رأتها قادمةً عليها من بعيد، ولكن شعاع الشمس حجب رؤية وجه خديجة، وبدأ يتضح شيئًا فشيئًا بفعل هرولة خديجة تجاه ميرفت، التي ما إن رأتها حتي جرت عليها فاتحةً ذراعيها لها من شدة الشوق، قائلةً بصوتٍ عالٍ ممزوج ببراءة الأطفال:

خديجة حبيبة القلب.

ثم انتبهت فجأةً لنظرة من كانوا بفناء المدرسة، فخفضت صوتها وهي تتلقف خديجة بين أحضانها قائلةً: أوحشتِني لمَ كل هذه الغيبة؟!

بادلتها خديجة المشاعر والقبلات وهي تقول لها: سأبقىٰ معكم هنا دائمًا...

انفرجت أسارير ميرفت أكثر من ذي قبل، وظهر ذلك الفرح في صوتها وعينيها المطلتين علىٰ خديجة من خلف نقابها وهي تقول:

إذن ستعيشين مرةً أخرىٰ هنا مع بناتك.

خديجة: لا، سأعيش هنا بمفردي، أما بناتي فلا.

هنا ارتسمت علامات الاندهاش علىٰ وجه ميرفت ولكن سرعان ما تلاشت عندما استطردت خديجة كلامها عن بناتها وحياتها بعد أن جلسا بمفردهما في حجرة مجاورة لباب المدرسة.

ودَّعت كلٌ منهما الأخرىٰ، علىٰ أمل اللقاء في الأسبوع القادم، بحضور ضلعهما الثالث في مثلث الصداقة "كما كان يطلق عليهم والدها ".

عادت ميرفت إلىٰ مصر مع أمها، بعد وفاة والدها في السعودية، حيث كان يعمل هناك لمدة عشرين عامًا، كانت ميرفت وقتها قد أنهت المرحلة الثانوية، والتحقت هناك بالجامعة، لم تكن ميرفت تزوجت بعد، وتقدم لها رجل يكبرها بعشر سنوات، ولم يسبق له الزواج هو الآخر، وكان غير مناسب لها في المستوىٰ الثقافي والاجتماعي، ولكنها وافقت عليه بعد إلحاح من أمها وخالتها وعيون الجيران، التي تذكرها دائمًا بعمرها الذي تخطىٰ الخامسة والثلاثين بقليل،

وتساؤلاتهم بين الحين والحين عن عدم زواجها، لم تستطع أن تواجه كل ذلك، فرضخت للجميع، وسرعان ما تم الزواج الذي كانت تتوجس منه خيفةً، وبعد مرور شهرين فقط علىٰ زواجهما، ظهر علىٰ حقيقته عندما طلب منها مبلغًا من المال، وعندما رفضت وألحت علىٰ معرفة السبب، لماذا هذا المبلغ الكبير؟ بدا التوتر يظهر عليه، واصطبغ وجهه بالحمرة، وتشنجت يداه، وبدا أمامها غريبًا كأن لم تعرفه من قبل، فرَّت مسرعةً من أمامه بعد أن صفعها علىٰ وجهها، واستغاثت بجيرانها، وقامت بفتح الباب للهروب إلىٰ الجيران الذين أمسكوا به، وتحكموا فيه وراحوا يهدئونه من هياجه، في الوقت الذي دخلت فيه مرفت إلىٰ بيت جارتها، والتي قامت بتهدئتها، بعد أن حكت لها القصة، فأخبرتها جارتها أنه كان يعالج في إحدىٰ مراكز الإدمان، وقد حصل علىٰ العلاج، وبدأ يستجيب، ولكنَّ مصاريف المركز كانت باهظةً، فترك المركز، وجلست معه أخته تباشر علاجه، حتىٰ حدثت مشاجرة بين أخته وزوجها، وكادت أن تُطلَّقَ بسببه، فتركته، وبحثوا له عن زوجه فكان قدرك معه.

قامت مرفت بعد أن تركت له المنزل برفع دعوىٰ طلاق

للضرر الذي أصابها، وبعد عدة جلسات حصلت علىٰ حكم بالطلاق، وتخلصت من هذا الكابوس الذي جثم علىٰ صدرها مدة زواجها منه.

عادت مرفت لوحدتها بعد فقد أمها أعز الناس علىٰ قلبها، إلا أنها لم تلق بالًا لمن حولها، الذين كانوا يلمزونها بالكلام، ويغمزونها، فصممت علىٰ أن تبدا حياتها من جديد، فالتحقت بعدة دورات للتنمية البشرية، وواصلت القراءة والتعلم، فازدادت خبراتها بالحياة، وزادت ثقتها بالله والرضىٰ بقضائه.

هذا ما حدثت به خديجة الخالة مريم وهم جالسون بالحديقة في انتظار وفاء ومرفت لعقد الاجتماع المتفق عليه سابقًا.

بعد الترحيب بهم بدأت خديجة حديثها قائلةً: إنني استخرت الله علىٰ هذا المشروع الذي خططت له، وهو مساعدة أبناء الحي المتسربين من التعليم، وقد ادخرت لهذا المشروع كل ما أملك، بهدف أن يتعلم الواحد منهم حرفةً يتكسب منها مع التدرج في مراحل التعليم. ولا أريد أن

أعطيهم مساعدةً ماليةً شهريةً فحسب، ولكن أريد أن أعلمهم حرفةً تدر عليهم ربحًا بالتزامن مع التحاقهم بالتعليم.

كما يقول المثل الصيني: (لا تعطني سمكة، ولكن علمني كيف أصطادها).

قالتها وفاء وهي تقوم من مجلسها لتوزع عليهم أكواب العصير.

واصلت خديجة: بالفعل يا وفاء، وكما قال رسولنا الكريم ﷺ «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب علىٰ ظهره، خير له من أن يأتي رجلًا فيسأله، أعطاه أو منعه**» فما أنوي عمله هو أن أقوم بتعليمهم، وفي ذات الوقت لا يتأثر دخلهم، لذا فكرت أن أعطي لكل واحد منهم ما كان يأخذه في عمله، وكذلك من ليس له عمل، ومتسرب من التعليم، أعطيه لأشجعه، حتىٰ يصبح ماهرًا في حرفة تدر عليه ربحًا فما رأيكن؟

قالت الخالة مريم: جميل يا بُنيتي، ولكني أشفق عليك مما ستعانين منه في هذا الأمر، خاصةً مع الأطفال وأهلهم. إما من تعنت البعض، أو عدم رضوخ الأطفال للتعليم، أو من أصحاب القلوب المريضة من الجيران، فهو أمر ليس بالهين.

أجابت خديجة: سوف أبدأ التجربة بعدد قليل من الأطفال، وربما ذلك يشجع الآخرين.

وهنا هبت وفاء من مجلسها محاولةً رفع القلق عنهن:

أوافق أن أشاركك في هذا المشروع، وسوف أزودك بطرق علمية لتعديل سلوك الأطفال، بحكم عملي في مركز الإرشاد النفسي بجامعة عين شمس.

وقالت ميرفت:

وأنا سأقوم بتعليم الأطفال الرسم والمشغولات اليدوية.

وهنا تساءلت الخالة مريم:

وماذا عن دوري يا بنات؟ فأنا ما زلت شابةً، وأستطيع أن أعطي الكثير.

فاقتربن منها، ورحن يضحكن وقلن لها:

بل أنت أكثر منا شبابًا.

فقالت لها خديجة:

سوف تقومين يا خالة مريم بالإشراف علىٰ من سيقومون بطهي الطعام.

وتم توزيع الأدوار بينهن، ولكن فجرت إحداهن مشكلةً لم ينتبهن إليها، ألا وهي ضرورة إشهار جمعية حتىٰ يعمل من فيها تحت مظلة القانون، هنا تذكرت خديجة عم محمود شيخ المسجد المجاور، والذي كان مع والدها دائمًا، واستأذنت للذهاب للمسجد ثم عادت ومعها ذلك الرجل الطيب (عم محمود)، ذلك الرجل بشوش الوجه شديد البياض المشرب بالحمرة، يتكأ علىٰ عصاه، عندما تحدث كأنما خرجت من فمه سلاسل من الذهب، من عذوبة حديثه الذي غلفه بحكمه المبهرة، كان محبوبًا من الجميع، يسبقه وقاره في مجلسه، تحيط به هالة من الاحترام والوقار.

وقفت وفاء أمام الشيخ محمود لتعرفه بنفسها وأبيها، وعندما سمع اسمه دعا له بالشفاء، فقامت خديجة بتقديم الموجودين له، فعرفهم وعرف أهلهم، وأخذ يدعو لهم بالرحمة والمغفرة، ونظر إلىٰ الخالة مريم ورحب بها، وأشاد بعلاقاتها الطيبة مع الناس ودعا لها بالخير.

وقدموا له الشاي، وبدأ الحديث معهن في كيفية التعامل مع الموضوع.

نظر العم محمود للحديقة متأملًا، وابتسم قائلًا وهو يوجه حديثه لخديجة:

ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، بارك الله فيك يا بُنيتي، لقد دبَّت الروح في الحديقة، لقد كنت أمرُّ عليها وأنظر لها بحسرة مما آلت اليه، ولكن الآن ما شاء الله، بارك الله فيك، ورحم والديك، خير خلف لخير سلف.

ثم استطرد قائلًا:

اعلموا أنكم ستقدمون علىٰ أمرٍ جلل، لا بد فيه أولًا من استحضار النية الخالصة لوجه الله تعالىٰ، حتىٰ لا تكونوا كالذي يضع نقوده في كيس مثقوب، فالفرق بين العادة والعبادة النية، واعلمن أن هذا العمل يحبه الله ورسوله وكل نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى.

وثانيًا: فإنَّ العمل السليم الذي نود حصاد ثماره، لا بد من زراعته علىٰ أرض صالحة، لذا فإنَّ فكرة المؤسسة الخيرية هي فكرة ممتازة، وأنا سأساعدكم بكل ما أستطيع من قوة، فإنني أعرف موظفًا بوزارة الشئون الاجتماعية، بحكم عملي

في مجلس إدارة المسجد، سأستشيره في الإجراءات وكيفيتها، وسأحادثه غدا بإذن الله.

هم الشيخ محمود ونهض واقفًا، وقبل أن ينصرف قال:

بارك الله لكن وفي مجهوداتكن وفيما انتويتن عمله، ولكن تذكرن أن أصحاب الرسالات لهم أعداء، فأعددن أنفسكن لتقبل النقد والسخرية ممن لا يؤمنون بالفكرة، ولتكن همتكن ومن يعمل معكن عالية، فلا تلتفتوا للقيل والقال، ولا يُزلزَل العزم، ولا يُفَت في عضدكم، والطريق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، خاصةً وأنتن تتعاملن مع هذه الفئة من المجتمع، الذين هم مصدر الإجرام الأول، أطفال الشوارع، وما يكتنفهم من مشكلات لا تنتهي، هم ضحية الآباء والمجتمع بكل طوائفه.

واستطرد الشيخ محمود قائلًا:

لتكن أشواقكم لنجاح مشروعكم علىٰ امتداد طموحاتكم ليس لها حدود ولا أزمنة ولا أمكنة، وكونوا علىٰ حذر من سذاجة الفهم، وطفولية العمل، وعشوائية القصد،

وتنسموا رياحين النجاح، واسلكوا سبيل الرشد بمطية الطاعة، ولتكن غاياتكم نبيلة، ووسائلكم مشروعة، ولا تلتفتوا لتعرجات الطريق، ولا تنجرُّوا إلىٰ تفريعاته، وأخلصوا النية دائمًا في قولكم وأعمالكم.

ألقىٰ الشيخ محمود كلماته هذه عليهن، ولكنه رأىٰ في أعينهن القلق، الذي بدا عليهن فغرقن في صمت، فقال لهن:

مأجورات بإذن الله علىٰ كل عمل تقمن به، حتىٰ النية سيأجركن الله عليها، وقد شاء الله أن يضعكن في هذا الطريق، فلتكنَّ علىٰ قدر مراد الله منكن، وأنا معكن في أي وقت، وسأجمع لكن مبلغًا من المال يساهم ولو بقدر بسيط في إشهار هذه المؤسسة الخيرية.

أنهىٰ الشيخ محمود حديثه، ورفع يديه وهو يدعوا الله بالتوفيق لهن فيما أقدمن عليه..

٩

عاد الجميع إلىٰ المجلس، للتحاور حول حديث الشيخ محمود أو عم محمود كما كان يحلو للجميع مناداته بهذا الاسم لرقته وحنوه وحكمته.

قالت مرفت: هل لي أن أشارك معك يا خديجة بمبلغ من المال نجعله صدقةً جاريةً عن أبي وأمي؟

وقبل أن تجيب خديجة صاحت وفاء: وأنا أيضا يا خديجة سأذهب لأبي وأحضر منه مبلغًا صدقةً جاريةً لأمي، ولن يتردد أبي في ذلك، فهي الغالية عليه، وقد حزن لموتها حزنًا شديدًا، ولا يزال يذكرها في كل وقت.

قالت الخالة مريم: يا ليت معي فائض من نقود، لكنت ساهمت بها معكم، ولكنني سأقتطع جزء من معاشي من عمكم سمير، وأعطيه لكم كل شهر.

وهنا استشعرت خديجة حرج الخالة مريم فقالت:

لا عليكم اتركوا هذا الموضوع الآن حتىٰ نعرف المبلغ المطلوب للإجراءات.

كانت خديجة ووفاء ومرفت يقمن بالدعاية للمؤسسة، في

كل وسط من الأوساط وفي التجمعات، حتىٰ عنَّت فكرةٌ لوفاء، إنها تعرف صحفيًّا يمكن أن يساعدهم في موضوع الدعاية.

وعلىٰ الفور تم الاتصال به، ووعدها أن يخصص مساحةً في إحدىٰ الصحف التي تهتم بسوق المال ورجال الأعمال، قالت له وفاء:

ليس لدينا الأموال الكافية لعمل الإعلان.

فابلغها أنَّ لديه نسبة خصم تصل إلىٰ خمسين بالمائة كأحد المساهمين في الصحيفة، وأنه سيتبرع بالجزء الباقي، ولكن كل ذلك بعد إشهار المؤسسة.

تم تشكيل فريق عمل من عم الشيخ محمود ومحبيه ودوائر معارفه، وخديجة وصديقاتها وزملائها وأقاربها والجيران، وبدأ الجميع في الدعوة الىٰ دعم هذه المؤسسة من جهة، ومن جهةٍ أخرىٰ دعوة أولياء الأمور إلىٰ الاستجابة لنداء المؤسسة، وإرسال أبنائهم إليها.

استمرت الحملة لمدة شهر، وفي خلال هذه المدة كان قد تم إشهار المؤسسة، وحملت اسم "مؤسسة النهار

الخيرية" وقد تم وضع أهداف للمؤسسة، والمحيط الجغرافي الذي تعمل من خلاله، كذلك تسجيل المؤسسين لهذه المؤسسة والذي ضم الشيخ محمود، وخالها إبراهيم والذي تحمس لهذا المشروع بقوة، وبقية المجموعة بما فيهم الخالة مريم. وقد تم اتخاذ المطبعة التي كان يملكها والد خديجة كمقر للمؤسسة.

وبعد يومين من إشهار المؤسسة، تم الإعلان في الصحيفة، وبدأت حركة التطوع للعمل بالمؤسسة، وبدأ التوافد من بعض أولياء الأمور والذين اصطحبوا أبناءهم إلىٰ المؤسسة، وقد تم تسجيل بياناتهم في السجلات، وأيضا توقيع الكشف الطبي عليهم، وتقسيمهم عُمريًّا، كلُّ ذلك كان قد أُعد سلفًا بواسطة متخصصين، كذلك قد تطوعت بعض الأمهات للعمل في طهىٰ الطعام بالتناوب فيما بينهم، تحت اشراف الخالة مريم.

وفي اليوم الأول لاستقبال الأطفال، وقفت خديجة ووفاء ومرفت والخالة مريم أمام باب الحديقة المفتوح علىٰ مصراعيه، وبدأت خديجة تتحدث إلىٰ كل طفل عند دخوله قائلةً:

أهلًا حبيبي؛ ستقضي معنا يومًا ممتعًا، ولكن دعني أطلب منك الوقوف هنا أمام هذه المرآة، وانظر لوجهك وشعرك وملبسك وأسنانك.

وبعد ذلك تطلب منه أن يفتح إحدىٰ الخزائن التي أمامه، ويأخذ ما هو موجود بها من أدوات للنظافة الشخصية، ويذهب لأحد الأحواض المعدة سابقًا، ويقوم بغسل وجهه وشعره وأسنانه، ثم يأتي دور المربية التي تعطيه بدلةً رياضية، ويدخل في الحجرة الخشبية ويبدل ملابسه، وتشير له المربية بالوقوف أمام المرآة المجاورة للحجرة، ويسوي شعره ويضبط ملابسه.

تقف وفاء وهي تلمح الطفل، والسعادة قد ارتسمت علىٰ وجهه، فتسأله وفاء عن سر سعادته، فيقول لها:

لأنني هنا أفضل مما كنت عليه، ومظهري أجمل.

وفاء: هل تريد أن تبقىٰ جميلًا هكذا دائمًا؟

الطفل: نعم.

وفاء: إذن ماذا ستفعل؟

الطفل: سأعتني بنفسي دائمًا، وأرتدي الملابس النظيفة.

وفاء: حسنًا اجلس هنا لنرىٰ بقية أصحابك.

كانت وفاء تتجول بين الأطفال، وتحادثهم، وتبث فيهم روح الغيرة، مما دفع من رفضوا في البداية إلىٰ الاستجابة لها عند رؤية زملائهم.

واكتمل العدد، وجلس الجميع، وبدأت ميرفت بالترحيب بهم، والتعرف عليهم، ثم وزَّعت عليهم كراسات رسم وألوان، وطلبت منهم رسم أي شيء يحبونه، ووزعت الخالة مريم عليهم الطعام بعد ذلك، وأخذت وفاء الرسومات لتقوم بإجراء تحليل نفسي لشخصياتهم كلًا علىٰ حده، للتعرُّف علىٰ طرق التعامل مع كل منهم، حيث كان هناك بعض الأطفالا المشاغبون، أتت بهم أمهاتهم عنوة، وهم الهاربون من المدارس، وكانت خديجة تعطيهم مبلغًا من المال قبل انصرافهم.

وبعد أسبوع أدخلت ميرفت مادة القراءة، وأتت لهم بقصص أطفال ليقرؤوها، ومن لا يجيد القراءة منهم كانت تجلس معه وقتًا إضافيًّا، حتىٰ يصل إلىٰ مستوىٰ أقرانه.

وبعد أسبوعين بدأت خديجة تعلمهم، وتحفظهم القرآن الكريم، وبعد أسبوعين أدخلت مادة الحساب، وبعد أن اعتاد الأطفال علىٰ المكان وأحبوه، بدأت وفاء تعيد تشكيل سلوكهم، من خلال ألعاب يدوية، وقصص كرتون هادفة يشاهدونها علىٰ الحاسوب، وجاء دور ميرفت لتعلمهم أشغالًا يدويةً سرعان ما أتقنوها، خاصةً بعد أن علموا أن هذه المشغولات سوف تعرض في المعرض الذي أعدته خديجة في المكتبة التي كانت بجوار المطبعة، وبعد شهرين بدأ الأطفال يقطفون ثمار مشغولاتهم، وإعطاء ما يكسبونه لأهاليهم، وبدأت خديجة تدريجيًّا تُقلص المبلغ اليومي الذي كانت تعطيهم إياه، حتىٰ توقف تمامًا عندما أصبح جميع الأطفال يتكسبون من مشغولاتهم اليدوية، وأبدت بعض الأمهات استعدادهن لتعلم بعض المشغولات والحرف اليدوية المناسبة لهم، وعرضها في معرض المؤسسة، وهنا علَّمتهم الخالة مريم طرق تخليل بعض الأطعمة، وبيعها للحي والمطاعم المجاورة.

١٠

جلس "سيد بك" صاحب مجموعة سيديكو للمقاولات في مكتبه، وهو يقرأ صحيفة المال ورجال الأعمال، فوقع بصرة علىٰ هذا الإعلان:

"مؤسسة النهار الخيرية"، تفرَّس في العنوان جيدًا فوجده هو عنوان سكن عمه الذي كان يقيم فيه، والذي كم زارهم في طفولته وصباه وشبابه، حيث كان عمه يعينه علىٰ أعباء الدراسة والحياة عندما كان في الجامعة، وقد توفي والده فجأةً فكفله عمه، وكان ينفق عليه وعلىٰ والدته التي حفظت الجميل، وكانت تقوم بودِّهم حتىٰ حدث ما حدث، عندما طلبت والدتُه خديجة للزواج من سيد، وقد رفضت خديجة لأنها كانت ترغب في الزواج من عبد الحميد.

تذكر سيد كل هذه المواقف، وبدأ الحقد يشتعل في قلبه، وصمم علىٰ مواصلة الانتقام من خديجة.

اتصل برئيس مجلس إدارة الصحيفة، وطلب منه توثيق المعلومات لديه، فأفاده أن صاحبة المؤسسة سيدة تدعىٰ خديجة، أرسل مندوبًا من عنده للتبرع بمبلغ من المال،

وعرض بعض الخدمات علىٰ المؤسسة، وأراد بذلك أن يقترب من خديجة أكثر لعله يحظىٰ بها، وإن لم يكن فإنه يستطيع من قريبٍ تدمير كل ما تفعله، حتىٰ لا تصبح شخصيةً عامةً في المجتمع، وهو الذي يرىٰ في نفسه أنه الأولىٰ والأقدر.

ذهب مندوب سيد بك ليلتقي خديجة، بصفتها رئيس مجلس أدارة المؤسسة، بعد أن طلب مقابلتها، وتحدثت معه، وأخرج من جيبه مبلغًا من المال، ووضعه علىٰ مكتبها وقال لها:

هذا مبلغ بسيط للمؤسسة.

طلبت خديجة القائم بأعمال الحسابات، وأعطته المبلغ وقالت:

قم بِعَدِّ المبلغ، وأعط الأستاذ إيصالًا باسمه.

عد المحاسب المبلغ، فوجده عشرة آلاف جنيه.

سأل المحاسب الرجل، باسم من سيكون الإيصال قال له: باسم سيد بك صاحب مجموعة سيديكو للمقاولات.

حرر المحاسب الإيصال، وأعطاه للمندوب، وانصرف

الآخر متوجهًا لسيد بك.

سألت خديجة عن الرجل فأخبرها المحاسب باسم صاحب الإيصال، وما إن سمعت حتىٰ أحست بدُوَار شديد يأخذ برأسها، فجلست علىٰ مكتبها غارقةً في ذكرياتها الأليمة، وأوجاعها التي حاولت أن تتعايش معها، وتتماسك لمواصلة العمل التطوعي، إلا أن هذا الشيطان راح يُطل برأسه من جديد.

لقد كان السبب في قتل زوجها، إلا أنه لم تثبت عليه أية تهمة، حيث كان يدير أعماله الشيطانية بأسماء بعض ضعاف النفوس، ومعدومي الضمير، وقد خاب ظنها عندما قُيدت قضية قتل عبد الحميد ضد مجهول.

دارت بها الأرض ولم تكن تعرف ماذا تفعل، غرقت في التفكير، قطع تفكيرها رنين الهاتف برقم غريب.

خديجة: من معي؟

المتصل: كيف حالك يا خديجة؟

خديجة: قلت من معي؟

المتصل: ابن عمك سيد هل وصلكم المبلغ؟

خديجة: ماذا تريد مني؟ أنا لا أقبل التبرع منك، أموالك مشبوهة، وأنا لا أريد أن أطعم هؤلاء الأطفال من مال حرام، أو علىٰ الأقل فيه شبهة، سأرد لك المبلغ علىٰ الفور.

سيد: لن تستطيعي رد المبلغ لأنه دخل الحسابات.

خديجة: سأتصرف فيه وأردُّه لك.

سيد: لماذا تعاملينني هكذا!! ألست ابن عمك؟

خديجة: بلىٰ!! ولكنك قاتل زوجي.

سيد: أنا لم أقتله، هو الذي أبلغ عن الذين يعملون معه، وتسبب في تشريد أسرهم فقتلوه، أنا بعيد عن كل ذلك.

خديجة: أنت لم تثبت عليك في الدنيا، لكنك في الآخرة سيبعثك الله، وفي رقبتك دم عبد الحميد زوجي.

أنهت خديجة المكالمة، وغرقت في التفكير مرةً أخرىٰ حتىٰ دخلت عليها مرفت ،فانهمرت خديجة بالبكاء، وقصَّت عليها ما حدث، فقامت بتهدئتها وذكرتها بالشيخ محمود، عسىٰ أن تجد عنده الحل في هذه المشكلة.

وعلىٰ الفور حضر الشيخ محمود، وقصَّت عليه خديجة ما حدث، وأنها تريد رد المبلغ لسيد، لأنها تشك أنَّ ماله من حرام، ولكن المبلغ دخل الحسابات، ولا تعرف كيفية التصرف في الموضوع.

الشيخ محمود: يا بنيتي ارفقي بنفسك، فالله لن يخذل أهل الخيرات أبدًا، ولن يردَّ حائرًا دعاه. أما يا بنيتي بشأن رد المبلغ لأن الشك ملأ قلبك أنه من حرام، فقد أفتىٰ أسيادنا العلماء بجواز قبول ذلك المال، وعمل المشروعات الخيرية منه، ولكن المتبرع بهذا المال الحرام لن يقبله الله منه، لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله طيبٌ، لا يقبل إلا طيبًا**»، فتوكلي علىٰ الله، ولا تردي له المبلغ، ولكن يمكنك ما دام يضمر لك الشر ألا تتعاملي معه مرةً أخرىٰ.

هدأت خديجة، وشكرت الشيخ محمود، وراحت تواصل أعمالها، إلا أنَّ سيد ابن عمها لم يتركها كي تعيش حياتها، فقام بالاتصال بها من رقم آخر، وقد فوجئت أنه سيد بعد أن أغلقت المحمول عدة مرات في وجهه، ردت عليه فراح يكلمها عن فتح صفحة جديدة معها، وأنه لم يعد له من العائلة غيرها، وأنه يريد الارتباط بها فهو لا يمكنه نسيانها، وأنه

علىٰ استعداد لدفع الملايين تحت قدميها.

ردت عليه خديجة بالرفض، ونهرته، وطلبت منه ألا يتصل بها ثانية، ويكفي أنه قد دمَّر حياتها.

مر علىٰ مكالمة سيد خمسة عشر يومًا، كانت خديجة قد هدأت أعصابها، واستأنفت العمل في المؤسسة بكل نشاط وحيوية.

جاءها أحد موظفي المحكمة، عرَّف نفسه بأنه محضر، وأنه جاء ليسلم الأستاذة خديجة إنذارًا بغلق المؤسسة، وعلىٰ الفور أدخلوه المكتب حيث كانت الساعة العاشرة صباحًا، سلَّمها الإنذار، ووقعت عليه وانصرف، فراحت تقرأ الإنذار، وقد كانت المفاجأة عندما قرأت أن الإنذار مرسل من ابن عمها سيد علىٰ أحمد الشلقامي، وهو يدَّعي أنه وريثٌ في أرض المؤسسة، من عمه المرحوم محمد أحمد الشلقامي والد خديجة، حيث تُوفِّيَ عمه ولم يكن له إلا ابنته خديجة، وزوجته أم خديجة، التي ترث الثمن طبقًا للشرع، وترث خديجة النصف، والباقي يذهب إليه.

لم يكن سيد بحاجة إلىٰ المال، فهو من أصحاب

الملايين، لكنه الشر الذي أضمره لخديجة.

قامت بالاتصال بخالها إبراهيم، الذي نصحها بالبحث في أوراق أبيها، وقال لها: إنني أعرف أنَّ هذه المطبعة والمكتبة، هي ميراث أختي من أبي، فهذا المال لا يخصه وليس له ميراث فيه، لأنه مال أمك يا خديجة.

راحت خديجة تبحث في الأوراق، أعياها البحث، كانت مضطربةً للغاية بعد أن حاول سيد تهديدها بكل الوسائل.

لم تعثر خديجة علىٰ شيء، غير أن الارتباك والاضطراب كان ملازمًا لها، حتىٰ قصَّت القصة علىٰ الخالة مريم، فنصحتها بأن تبحث في مقتنيات أمها، والتي كانت تخرج منها مجوهراتها، وقالت: توجد علبة فضية اللون، أخرجتها المرحومة عدة مرات أمامي، هل بحثت فيها؟

بحثت خديجة لكنها لم تجد شيئًا، مدت يدها للمصحف، كي تقرأ منه ما تسكِّن به روحها، فتذكرت أنَّ هناك مكانًا لم تبحث فيه، وهو درج صغير كانت أمها تحذرهم من الاقتراب منه.

نظرت إلىٰ صورة أمها وأبدت الاعتذار، وذهبت إلىٰ

ذلك الدرج بدولاب أمها وفتحته بصعوبة، وقد وجدت فيه الكثير من الأوراق، مثل الرسائل التي كانت بينها وبين أبيها في فترات الخطبة والزواج، وخطاباته لها أثناء سفره، والتي تفيض بالحب والمودة والرحمة، وقد عرفت الآن لماذا كانت تحذرهم من الاقتراب، ووجدت كذلك العقود التي تثبت ملكية جَدِّها لأمها في المطبعة والمكتبة، وأنَّ كل هذه الأشياء ملك والدتها، التي ورثتها بطبيعة الحال عن والدها، وقد وجدت عقدًا آخر يفيد تملك خديجة للمكتبة، وقد وجدت وثيقةً فيها من التواد والمحبة بين جدها وبين أبيها، فقد أوصىٰ جَدُّها بأنَّ قطعة الأرض المقام عليها المنزل، قد تنازل جَدُّها عنها لابنته وزوجها والد خديجة، والذي قام بتشييد البناء عليها وعمل المطبعة والمكتبة.

طارت من الفرح وسجدت لله شكرًا.

تم تحديد جلسة بالمحكمة، وذهب المحامي الذي كلفته بالأوراق ليدحض حجة ذلك الشيطان وتحكم المحكمة بعدم قبول الدعوىٰ.

١١

سار العمل علىٰ ما يرام، إلا أنَّ رياح الغدر والحقد عصفت بالأخضر واليابس، حيث استيقظت خديجة فجرًا علىٰ ضجيج بالخارج وهرج ومرج، هرعت إلىٰ النافذة المطلة علىٰ الخارج، وفتحتها بقوة فوجدت دخانًا كثيفًا، ورائحةً تكاد أن تخنقها.. أعادت إغلاق النافذة بسرعة، وجرت علىٰ هاتفها لتتصل بالمطافئ والنجدة، ثم ارتدت ملابسها علىٰ عجل، وخرجت مهرولةً خارج الحديقة، لتجد بعض الجيران يسرعون الىٰ المطبعة "مقر المؤسسة"، ويتسابقون لإطفاء الحريق بالماء، حيث أيقظت النيران الكثير من جيران المؤسسة من شدة حسيسها ورائحتها.

جاءت المطافي فأخمدت الحريق مع الجيران، وتم إبلاغ النيابة بعد تحرير محضر بالواقعة من الشرطة، وتم استدعاء خديجة للنيابة لسماع أقوالها، فذكرت بأنَّها تلقت تهديدات كثيرة من بعض الأشخاص الذين كانوا يتصلون بها، وقصَّت للنيابة ما كان من سيد، وما كان من بعض أصحاب الورش الذين هددوها، لأنها قامت بسحب الأطفال من عندهم، وذلك عندما سألتها: تتهمي مين بالحريق؟

خرجت خديجة من مقر النيابة العامة، وقد عرفت أنَّ قرار النيابة هو إجراء تحريات عن المعلومات التي ذكرتها للنيابة.

بدا علىٰ وجهها علامات البشر والفرح والثقة بالله، عندما كانت تتابع الأطفال وبعض أهاليهم، وهم ينظفون ويرتبون مقر المؤسسة، ويعيدونها لحالتها، حاولت مرارًا وتكرارًا ألا يفعلوا شيئًا، وأخبرتهم أنَّها سوف تُحضر عمالًا لفعل ذلك لكنهم أصروا قائلين:

إنَّ هذا المكان أصبح بمثابة البيت لنا، ونحن من سيعيده إلىٰ ما كان عليه. وهنا شعرت خديجة إنها نجحت هي وصديقاتها في زرع الانتماء للمكان في نفوسهم، وتحقيق الأهداف المرجوة من إنشاء المؤسسة، وأنه مع الصبر والمثابرة سيؤتي مشروعها ثماره.

"جاءت الطبيبة دعاء من المركز الطبي، تريد أن تقابلك يا أستاذة خديجة" قالتها عاملة المؤسسة لخديجة التي كانت تجلس في مكتب المؤسسة، فسمحت خديجة لها بالدخول.

الطبيبة: السلام عليكم.

خديجة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

الطبيبة: أنا الدكتورة دعاء من المركز الطبي، وأريد أن أتطوع للكشف علىٰ الأطفال لو تقبلين ذلك.

خديجة: أهلا بك دكتورة دعاء، أشرف بذلك، أشعر أنني قابلتك قبل اليوم.

الطبيبة: نعم؛ لقد رأيتك في المركز الطبي، وكان برفقتك مريضة.

خديجة: أجل؛ تذكرت، كانت أم هاني.

الطبيبة: تمام، وكنت أريد أن أحادثك وقتها في أمر هام.

ولم تكمل كلامها، فقد طرقت الخالة مريم باب المكتب، ابتسمت خديجة وهي تقول لها: تفضلي يا خالة، ما هذا الذي بيدك؟

مريم: لقد أتيت لك يا خديجة بأول انتاج من الحلويات من مطبخ المؤسسة، لتكوني وضيفتك الكريمة أول من يتذوقه.

ومدت يدها لدعاء وهي تقول: تفضلي يا بُنيتي.

بدا علىٰ دعاء علامات الاستياء وقالت: لا، لا أريد، شكرًا.

شعرت خديجة بحدة رد دعاء علىٰ الخالة مريم، وأرادت أن تخفف من حدة الموقف وقالت:

الطبيبة دعاء متطوعة معنا هنا للكشف علىٰ الأطفال، ومن الواضح أنها تريد قياس النسب التي بالطعام قبل أن تتذوقه.

وضحكت لكي تهدِّئ من الموقف، ابتسمت الخالة مريم واستأذنت للخروج، وهنا ألقت دعاء سؤالًا فيه حدة لخديجة:

كيف تستعينين بمسيحية في عمل المؤسسة؟! وكيف تكون بينكم؟! وما الذي يجعلك تثقين بها؟ كيف تأتمنينها علىٰ الأطفال؟ وكيف تجلسون أمامها بطبيعتكم خاصةً وقد رأيت بينكم منتقبة؟

ولماذا أتيت بأم هاني إلىٰ المركز الطبي، فهناك المستشفىٰ القبطي الخاصة بهم؟

ابتسمت خديجة في هدوء وقالت:

حبيبتي؛ ماذا لو كانت والدتك أو خالتك أو عمتك أو جدتك مسيحية؟ هل ستمتنعين عن التعامل معهم؟!

الطبيبة: لم أفكر في ذلك من قبل.

خديجة: ألم تسمعي قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، وهي تسكن بجوارنا، ولم أجد منها إلا كل خير.

الطبيبة: ربما لأنها تسكن بمنزلكم. فلا تريد إثارة المشاكل.

خديجة: أبدًا حبيبتي؛ فوالدي أمي كانوا علىٰ علاقة قوية قبل أن يقطنوا هنا، وعندما علموا أن أبي سيقوم بتأجير الشقة التي فوقنا صلبوا منه استأجارها، وكانوا يعتبرون أبي بمثابة الأخ الأكبر لهم؛ لأنهم كانوا صغارًا في السن، وكانت الخالة مريم كلما زارتها أختها تأتي بها لتزور أمي، كانت أمي تحبها كثيرًا، وكان أبي يقضي لها حوائجها بعد وفاة زوجها. وقد كان لها معنا مواقف جميلة، وأذكر عندما مرضت والدتي وكنتُ المرافقة لها بالمستشفىٰ، كانت ترعىٰ بناتي، وتقوم علىٰ خدمتهم طوال رقود

أمي بالمستشفىٰ، والذي قارب شهرًا كاملًا.

الطبيبة: كيف تتركينها مع أطفال المؤسسة؟ يمكنها استدراجهم واللعب بعقيدتهم. خديجة: حسنا سأجعلك تشاهدين بنفسك.

وقامت باصطحاب الدكتورة دعاء إلىٰ غرفة نومها، وقامت بتشغيل الكاميرات، حيث رأت مريم تقوم بصفِّ الأولاد والبنات وهي تسير أمامهم.

الطبيبة: إلىٰ أين تذهب بهم؟

خديجة: إلىٰ العاملة المكلفة باصطحابهم إلىٰ المسجد في وقت الصلاة، كما كنت أفعل كل يوم، لقد تركت المنزل يومين وذهبت لشقتي لقضاء بعض المصالح وأبلغت الخالة مريم أن تعتذر للأطفال؛ لكنها رفضت وأصرت علىٰ ممارسة نشاطهم كما لو كنت متواجدة.

الطبيبة: ولماذا هذه الكاميرات؟

خديجة: قمت بتركيبها بعد الحريق الذي حدث وبعد تلقي التهديدات. ولكن لا أحد يعلم بهذه الكاميرات إما أصحابي أو الخالة مريم.

الطبيبة: لقد كنت أرىٰ غير ذلك بشأن تعامل المسيحين معنا. ربما هذه السيدة تختلف. وربما لابد من إعادة التفكير في الأمر.

خديجة: المطلوب يا دكتورة دعاء ألا نُعمِّم أحكامنا، وأن نقدِّر كل حالة علىٰ حدة ، ففؤاد ابنها يقطر تعصبًا، وهي لا توافقه علىٰ فكره ومواقفه، وتغضب منه ولقد قاطعها مرات عديدة، عندما نسي بر الوالدين، وساقه تعصُّبُه الأعمىٰ إلىٰ هجرها وقطع صلته بها.

أومأت الدكتورة دعاء برأسها، وهي تشكر خديجة علىٰ جميل صنيعها، ولأنها ألقت بحجرٍ في بحر تفكيرها الراكد، وأنَّ مريم هذه ربما تُغير نظرتها بعض الشيء.

قالت لها خديجة:

المشكلة في التعميم والانسياق من الذين لا يفهمون حقائق الدين في التعامل مع الآخر، ولدينا في السيرة العطرة وأحاديث الرسول ﷺ ما يكفينا. ولدينا أيضا من سيرة الخلفاء، وما نقله لنا التاريخ عن عظمة ديننا الحنيف في التعامل مع الآخر، ولم توجد منظومة في أي من الشرائع والقوانين

ما يكفل حق غير المسلمين كما جاء في شريعتنا الغراء، ولكننا لا نحاول حتىٰ التعرف علىٰ هذه المنظومة الخالدة علىٰ مر التاريخ والأزمنة.

شكرتها الدكتورة دعاء ثم انصرفت بعد أن حددت مواعيد زيارتها للكشف التطوعي كل أسبوع علىٰ الأطفال.

١٢

قررت خديجة أن تجمع الأطفال للغداء قبل سفرها بيومين، وقد قالت للخالة مريم إنها ستحضرهم يوم الجمعة، وسيصلون في المسجد القريب منا ثم نتناول جميعًا الغداء ،وسأتفق مع أحد المطاعم لتجهيز وجباتٍ لهم، ووجباتٍ لأهلهم يأخذونها معهم عند انصرافهم، ولا تتعبي نفسك أيتها الخالة مريم، فقط نريدك معنا علىٰ الغداء حتىٰ يكون هو الغداء الأخير مع العاملين بالمؤسسة ومع الأطفال قبل السفر.

حضر الأولاد يوم الجمعة صباحًا، وتم تقديم أكواب اللبن الطازج، وبعض المخبوزات كإفطار، وبعض الفاكهة، واجتمعت بهم وهي تقول لهم:

لقد قضينا هنا معًا أكثر من تسعة أشهر، وأنا فخورة بكم لما لمسته منكم من إصرار علىٰ تغيير حياتكم للأفضل، ومواصلة الدراسة، وإرضاء والديكم، وإنني سأغيب عنكم شهرًا كاملًا لأداء فريضة الحج، سأعود بعدها بإذن الله، ليكون لنا ترتيب آخر، وهو التحاقكم بمدارسكم التي كنتم بها، والبدء في حياة جديدة، وما تأخر من بدأ.

اجتمع الأطفال حولها يرجونها ألا تسافر، فقامت بشرح أهمية فريضة الحج، وأثار الموقف كوامن أشجانها فراحت تبكي، فقامت مرفت بجمعهم وتشغيل سورة الكهف بصوت الشيخ محمد صديق المنشاوي علىٰ الحاسوب، في جوٍّ تسوده السكينة والطمأنينة، وبعد قليل دخلت الخالة مريم إلىٰ الحديقة باتجاه ركن المطبخ، لتعد الطاولات لاستقبال الطعام.

قبل الانتهاء من قراءة سورة الكهف، رنَّ هاتف خديجة رنينه المميز، كان المتصل هو المطعم للتعرف علىٰ العنوان، ثم أكملت خديجة السورة وتبعتها سورة مريم، بينما ذهبت هي لتحدث ابنتها علىٰ النت، بعد أن بعثت لها رسالة تريد فيها محادثتها.

أنهت خديجة المحادثة مع ابنتها، ودخلت الحديقة لتجد الخالة مريم وقد جلست علىٰ الأرض واضعةً يديها علىٰ رأسها المنخفضة الىٰ الأرض مطأطئة، تقدمت إليها بهدوء، سألتها عن سبب إطراقها وصمتها ودموعها، فما إن رفعت وجهها لخديجة حتىٰ رأت عينيها تذرفان.

احتضنتها خديجة، وألحَّت عليها أن تُفصح عن سبب

ذلك، فأجهشت بالبكاء أكثر، وارتعشت يداها وكل جسدها.

قالت الخالة مريم: عندما سمعت اسم مريم في القرآن حدث لي ما حدث، أخبريني يا خديجة، ما هذا الذي حدث؟

ابتلعت خديجة ريقها، ونظرت إلىٰ السماء وهي لا تدري ماذا تفعل، إلا أنها تملكت نفسها، وجلست تحكي لمريم عن سيدنا عيسىٰ، وكيف أنه بشَّرَ بسيدنا محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام، وكيف أوتي المعجزات التي أيده الله بها، وأنَّ معجزاته الكبرىٰ في كلامه وهو طفل، وأنه وُلِدَ من غير أب وهذه معجزة كبرىٰ، لأنَّ الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون ،وأننا -كمسلمين- نؤمن بأنبياء الله جميعًا.

أخذت خديجة تقص عليها، وتفسر لها، حتىٰ رنَّ هاتف مريم، والتي نظرت الىٰ الرقم المتصل، فإذا به فؤاد ابنها، صرخت مريم فؤاد... فؤاد، ثم سقطت مغشيًّا عليها.

أمسكت خديجة التليفون وقالت لفؤاد:

يبدو أنَّ والدتك لم تتحمل المفاجأة لاتصالك بها.

أخبرها فؤاد أنه سيكون في القاهرة بعد ساعات.

تمر الدقائق كالساعات، يسود الهدوء والسكون، لا يقطعه سوىٰ أصوات أجهزة النبض والقلب، تتمتم خديجة ببعض آيات القرآن الكريم والأدعية، وهي ممسكة بيد الخالة مريم الراقدة في سبات عميق علىٰ أحد أسرة الرعاية بالمستشفىٰ القبطي القابع بمنطقتهم. وبعد برهه من الوقت، أخبرت الممرضة خديجة بضرورة ترك المكان وأن تنتظر بالخارج، همَّت خديجة بالوقوف، محاولةً سحب يدها من يد مريم التي قبضت بشدة عليها، وهنا توسلت خديجة للممرضة أن تبقىٰ بجوارها قليلًا، خاصةً أنها بدأت تفتح عينيها، وبعد إصرار خديجة وإلحاحها، وافقت الممرضة علىٰ بقائها بضع دقائق فقط، وفي أثناء ذلك، حاولت الخالة مريم نزع قناع الأكسجين من علىٰ وجهها، ولكنَّ خديجة ترجتها بألا تفعل قائلةً: لا يا خالة هذا خطر علىٰ حياتك، انتظري حتي يأتي الطبيب.

تضغط مريم بشدة علىٰ يدها، وتشير إليها أنها تريد أن تقول لها شيئًا، وافقتها علىٰ ذلك قائلةً:

حاضر يا خالة، سأذهب للطبيب، حتىٰ يأتي وينزع عنك القناع، وأسمع منك ما تريدين قوله.

وما إن همَّت خديجة بالخروج حتىٰ أفزعها صوت اقتحام فؤاد للحجرة، محدِّثًا إياها بوجه مكفهر:

شكرًا يا مدام علىٰ رعايتك لها، ولكن ها أنا قد جئت فدعينا لشأننا.

قالت له مستنكرة: مدام!! ألست بأبلة خديجة يا فؤاد؟! ما الذي طرأ عليك؟ وكيف تريدني أن أترك الخالة مريم؟!

وهنا دخلت الممرضة لتخرج الجميع من الحجرة.

نظرت خديجة للخالة مريم قبل الخروج، فرأت في عينيها نظرةً مغزاها أنها تريدها أن تبقىٰ معها، وهنا طمأنتها خديجة: سأنتظر بالكافتيريا يا خالة، وقتما تريدينني أبلغي الممرضة.

ذهبت خديجة للمرضة، وأعطتها رقم هاتفها، ومبلغًا من المال، وقالت لها: عندما يترك ابنها المكان اتصلي بي، فأنا هنا في الكافتيريا.

لم يمر وقت طويل عندما سمعت خديجة رنين هاتفها كان المتصل رقم مجهول، تسارعت دقات قلبها حتىٰ تكاد تسمع صوتها وهي ترد: آلو...

فإذا بصوت عال يحادثها: أنا الممرضة، تعال بسرعة.

وثب قلبها قبل خطواتها، تهرب زفراتها، تشعر بعدم التنفس، تكاد أن تقع من سرعة الهرولة، توقفت فجأةً حين رأت من بعيد تجمهر الكثير من الأطباء والممرضات حول فؤاد يواسونه هو ومن معه من عائلته ومعارفه، الذين سرعان ما زحموا الممر الذي أمام حجرة الرعاية، لمحتها الممرضة التي جرت عليها لتخبرها قائلةً:

بعدما خرجت من الحجرة، توسل إلينا ابنها أن يدخل ليراها، وبعد برهه من الوقت سمعنا صوته يعلو مع أمِّه، وما إن دخلنا حتىٰ وجدنا الضغط مرتفعًا للغاية، وبدأنا نسعفها ولكن دون جدوىٰ.

١٣

راحت تناجي ربها بصوت متهدج يغلفه الدموع، والتي لم تتوقف إلا عندما شعرت بيد تربت علىٰ ظهرها وصوت يقول:

هوني عليك يا بُنيتي، كل شيءٍ في الدنيا هين طالما لا يمس الدين.

نظرت إليها خديجة فلم تستطع تحديد ملامحها من ضبابية ما علىٰ عينيها من دموع، وأخذت تقص لها عن الخالة مريم.

أجابتها: ولم البكاء والحسرة التي أجدها في صوتك؟

أولًا: إنَّ ما في القلب لا يعلمه إلا الله، وما أدراك ما السر الذي ذهبت به إلىٰ خالقها.

ثانيًا: وإن لم يتحقق مأمولك؛ ألم تعلمي أنَّ عم رسولك رغم حبه ووقوفه بجانب ابن أخيه لم يُسلم وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

ثالثًا: اسألي نفسك إذا كنتِ قد علمتِ بما يريح قلبك

كما قلتِ، فلعل الله جعل ذلك مجهولًا بالنسبة لك لأنك لا تستطيعين فعل شيء.

اتركي أمرها لخالقها يا بُنيتي، فهذا بينها وبين ربها، فقط عليك بالدعاء أن ينير الله لك طريقك، ويثبتك ويعينك.

قطع حديثهما إقامة صلاة المغرب، فهمَّت خديجة بالوقوف، والتفتت لتعين السيدة علىٰ القيام، ولكن لم تجدها بجوارها، تلفتت يمينًا ويسارًا فلم ترها في الصف، استقبلت الكعبة وهي شاردة، ولم تنتبه إلا علىٰ صوت الشيخ الشريم وهو يتلو قول الله تعالىٰ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾..

إخراج فني
معاذ علي الجراحي